صورة المقابلة المعنوية
وسماتها البلاغية في سورة الرحمن
دراسة بلاغية تحليلية وموازنة

الباحث

د/ شحاتة عبد الرازق أبوشوشة

مدرس بقسم البلاغة والنقد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية بالإسكندرية

صورة المقابلة المعنوية وسماتها البلاغية في سورة الرحمن دراسة بلاغية تحليلية وموازنة

شحاتة عبد الرازق أبوشوشة
مدرس، قسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية، الإسكندرية، جامعة الأزهر، مصر.
البريد الإلكتروني: Shehata.Abdelrazek@azhar.edu.eg

ملخص البحث:

المقابلة فن بديعي، احتفت به أسفار البلاغيين قديما وحديثا، وتباينت تعريفاتهم لهذا اللون البديعي، فإذا رجعنا إلى كتب اللغويين وجدناها تدل على معاني المواجهة والمعارضة والمعاينة.

ومن تعريف أبي هلال العسكري السابق ندرك أن فن التقابل لا يرتبط فقط بالكلمات المتقابلة، وإنما يكون بين المعاني والأفكار والصور، وبخاصة فيما تتشكل منه صور كلية تتقابل فيما بينها.

ومن ثم حددت حدود دراستي بتناول صورة المجرمين وطوافهم بجهنم التي يكذبون بها وصورة جنتي من خاف مقام ربه عز وعلا، وصورة (من دونهما جنتان) في سورة الرحمن تحليلا وتعليلا وموازنة.

وخطة البحث تقوم على مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة وقائمة المصادر.

الكلمات المفتاحية: الصورة–المقابلة–المعنوية– سورة الرحمن–موازنة

the moral interview and its rhetorical The image of Rahman-features in Surat Al

Shehata Abdel Razek Abu Shusha
Lecturer, Department of Rhetoric and Criticism
Faculty of Islamic and Arabic Studies in Alexandria
Shehata.Abdelrazek@azhar.edu.eg

The interview is an adorable art, celebrated by the travels **Abstract**:of rhetoricians in the past and present, and their definitions of this primitive color varied, so if we go back to the books of linguists, we find that it indicates the .ntation, opposition and inspectionmeanings of confro Askari's previous definition, we realize -From Abu Hilal Al that the art of encounter is not only related to opposing words, but rather between meanings, ideas and images, that especially in what is formed from holistic images correspond with each other

Then I set the limits of my study by dealing with the image of criminals and their circumambulation of hell that they lie with, the image of my paradise for those who feared the and the image ،shrine of his Lord, the Glorious and Exalted Rahman as an -without them two Paradise) in Surat Al) ،analysis, explanation and balance

The research plan is based on an introduction, three .chapters, a conclusion, and a list of sources

key words:man Rah-Image. the interview. MoralSurat Al . Balancing ...

التقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على من أرسل رحمة للعالمين.

وبعد:

فإن المقابلة فن بديعي، احتفت به أسفار البلاغيين قديما وحديثا، وتباينت تعريفاتهم لهذا اللون البديعي، فإذا رجعنا إلى كتب اللغويين وجدناها تدل على معاني المواجهة والمعارضة والمعاينة، يقول الخليل ابن أحمد: (القِبَل: الطاقة، تقول: لا قبل لهم بها، وفي معنى آخر هو التلقاء، تقول: لقيته قبلا أي مواجهة)[١] وقد وافقه أبوبكر الرازي وابن فارس في دلالتها على المواجهة[٢] وزاد الزمخشري في الأساس عليه عيانا[٣]، بينما ابن منظور أضاف معنى المعارضة[٤].

وانبنت على هذا تعريفات البلاغيين لها، مرورا بأبي هلال العسكري الذي يقول: هي (إيراد الكلام ثم مقابلته بمثله في المعنى واللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة)[٥] ثم الباقلاني[٦] والسكاكي[٧] والزركشي[٨] والرازي[٩] إلى

(١) كتاب العين/ ٥/ ١٦٦/ ت مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي/ مكتبة الهلال
(٢) ينظر/ مختار الصحاح/ مادة قبل/ ت/ مصطفى ديب البغا/ دار الهدى الجزائر/ ط٤/ ١٩٩٠م، ومقاييس اللغة/ مادة/ قبل/ دار الفكر/ ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
(٣) ينظر/ أساس البلاغة/ ٣٥٠/ مكتبة لبنان/ ط١/ ١٩٩٦م
(٤) ينظر/ لسان العرب/ مادة قبل/ دار صادر
(٥) الصناعتين/ ٣٧١/ ت د/ مفيد قمحية/ دار الكتب العلمية
(٦) ينظر/ إعجاز القرآن/ ٢٨/ ت/ صلاح بن محمد بن عويضة/ دار الكتب العلمية بيروت/ ط١/ ١٩٩٦م
(٧) ينظر/ مفتاح العلوم/ ١٧٩/ دار الكتب العلمية بيروت-لبنان
(٨) ينظر/ البرهان في علوم القرآن/ ٣/ ٤٥٨/ ت/ محمد أبو الفضل إبراهيم/ عيسى الحلبي/ ط١/ ١٣٧٦هـ-١٩٥٧م
(٩) ينظر/ نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز/ ١٥٠/ ت/ د/ سليمان حمودة/ دار المعرفة الجامعية ٢٠٠٣م

الخطيب الذي عرفها بقوله: (هي أن يؤتى بمعنيين متوافقين، أو أكثر، ثم بما يقابل ذلك على الترتيب)[١] وصحة المقابلة ودقة استعمالها أن يتطلبها المقام، وتستدعيها الحال، ويستحثها المعنى، سواء كانت على جهة المخالفة أو الموافقة.

المقابلة المعنوية:

ومن تعريف أبي هلال العسكري السابق ندرك أن فن التقابل لا يرتبط فقط بالكلمات المتقابلة، وإنما يكون بين المعاني والأفكار والصور، وبخاصة فيما تتشكل منه صور كلية تتقابل فيما بينها، فتقوم المقابلة في إظهار هذا التضاد وذاك التناقض، وبدوره يؤدي إلى تبيين المعاني والأفكار والصور في صورة جلية مؤكدة تثير إدراك المتلقي وتستدعي تأمله، وهذا من أبين طرق التأثير في النفس وحثها على القبول أو الرفض.

ثم تناول الزمخشري في كشافه هذا المفهوم للمقابلة المعنوية حيث نراه يقول: (من عادته ﷻ في كتابه أن يذكر الترغيب مع الترهيب، ويشفع البشارة بالإنذار إرادة التنشيط، لاكتساب ما يزلف، والتثبيط عن اقتراف ما يتلف. فلما ذكر الكفار وأعمالهم وأوعدهم بالعقاب، قفاه ببشارة عباده الذين جمعوا بين التصديق والأعمال الصالحة من فعل الطاعات وترك المعاصي، وحموها من الإحباط بالكفر والكبائر بالثواب)[٢] وكثيرا ما يركز على هذا اللون من المقابلة المقابلة (إذ يرى أن المقابلة اللفظية من السهل الإتيان بها، أما المقابلة المعنوية، فلا يؤتى فهمها إلا ذو طبع سليم، وقدرة على الغوص وراء المعاني

(١) التلخيص في علوم البلاغة/ ٣٥٢/ ضبط وشرح عبد الرحمن البرقوقي/ دار الفكر العربي.

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل/ الزمخشري/ ١/ ١٠٤/ دار الكتاب العربي- بيروت/ ط٣ ١٤٠٧م.

لاستخراج التقابل بينها)[1] فتظهر حقيقة المستهدف من وضع الصورتين المتقابلتين في هيئة تواجه إحداهما فيها الأخرى.

البيان القرآني والمقابلة المعنوية:

القرآن معجزة الإسلام الخالدة، التي أبهرت العقول، وأسرت القلوب، وأنطقت أرباب الفصاحة وسدنة البلاغة بجمال بيانه وجليل أسرار إعجازه مع ما هم عليه من كفر وضلال، وكان للصور الكلية أو المشاهد القرآنية في القصص أو الأحداث أو فيما يكون يوم القيامة–دور عليٌّ في التربية والتنشئة والتوجيه، وكان من روافد هذا التأثير ما أقيم عليه سياق القصص من أسلوب المقابلة والموازنة، بين المعاني والصفات، وهذه(طريقة القرآن الكريم المطردة في ذكر صفات الجنة مقابلة لأوصاف النار، وذكر المؤمنين المتقين لجانب ذكر الكفار والمشركين، وهذا من طرائق القرآن التربوية، وفيه تشويق لقارئ الكتاب أن يتحلى بالأوصاف الكريمة ويبتعد عن ضدها، ويرجو الجنة وما فيها ويتعوذ من النار وأهلها وما فيها، وبالضد تتميز الأشياء، وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر.)[2] وذلك لكونها توقف المتلقي على المقصود دون لبس أو خفاء، مما يجعله في موقف بين، وعلى نهج واضح، فلا يملك إلا أحدَ أمرين: إما الإذعان للحق لقوته ووضوح صراطه، أو الذلة والمهانة وتنكيس الرأس بتجنبه والانحراف عنه إلى الباطل مع وضوح دلائل خسرانه وسطوع براهين سوءته، وهذا مما يجب أن يدرس، وأن يكون وسيلة للتربية والتوجيه.

وإن من نشأ في رحاب البيان القرآني، وارتبطت به ملكاته، لا يملك إلا أن يسجد لله شكرا وإجلالا على هذه النعمة العظيمة، وقد أكرمني الله تعالى بنفحة من هذا الفضل وتلك النعمة، التي أصبحت تتملك العقل والقلب، أو

(١) أسلوب المقابلة في القرآن الكريم–دراسة فنية بلاغية مقارنة/ د/ كمال عبد العزيز إبراهيم/ ١٠٧/ الدار الثقافية ٢٠١٠م

(٢) بحوث منهجية في علوم القرآن الكريم/ موسى إبراهيم الإبراهيم/ ٢٣٣/ دار عمار ط٢/ ١٤١٦هـ–١٩٦٦م

الفكر والعاطفة، وكلما سنحت الفرصة يممت وجهي شطره للتدبر والدراسة، وكان مما لفت نظري كثيرا صورة جهنم التي يكذب بها المجرمون، وصورة الجنتين لمن خاف مقام ربه ثم صورة الجنتين اللتين من دونهما في سورة الرحمن، وشدني كثيرا هذا التقابل الواضح بين صورة جهنم، ثم صور الجنان الأربع، فكان ذلك لبنة تلك الدراسة عن هذه المقابلات المعنوية وطريقة بنائها في السورة الكريمة، وخصوصية الكلمات والتراكيب وسمت المعاني فيها.

وقد سبقت هذه الدراسة بما تناثرت لآلئه في كتب السابقين في الإعجاز القرآني، أو في البلاغة العربية، ومما اطلعت عليه وأفدت منه حديثا (أسلوب المقابلة في القرآن الكريم–دراسة فنية بلاغية مقارنة/ د/ كمال عبد العزيز إبراهيم) وهي تتناول المقابلة تعريفا وتأصيلا وتطبيقا على العديد من النماذج القرآنية، غير أنها لم تتوقف أمام المقابلة المعنوية في سورة الرحمن كثيرا، ثم دراسة (أسلوب المقابلة في سورة الرحمن وأثره في المعنى/ د/ زكريا علي محمود الخضر) وبدأ كسابقه بتعريف المقابلة ثم تناولها في السورة تطبيقا وتوجيها، غير أن تناوله خلط بين التقابل وبعض الفنون البديعية الأخرى كمراعاة النظير، كما أنه لم يصقل البيان عن المقابلة المعنوية بدراسة شاملة تتناول المفردات ودلالات التراكيب وخصائصها، والموازنة بين الصور المتقابلة.

ومن ثم حددت حدود دراستي بتناول صورة المجرمين وطوافهم بجهنم التي يكذبون بها وصورة جنتي من خاف مقام ربه عز وعلا، وصورة (من دونهما جنتان) في سورة الرحمن تحليلا وتعليلا وموازنة، وتعتمد الدراسة على تتبع السمات البلاغية العامة في البناء اللغوي للسورة، ثم مكونات صورة المقابلة المعنوية من الكلمات ودلالاتها والأساليب وخصوصياتها، والصور البيانية وظلالها، والفنون البديعية وآثارها، ثم بيان المعاني وسمتها القائم على الإجمال أو التفصيل، والكشف عن تناسقها وتنوعها، ثم تحديد أوجه التوافق والتواصل بالموازنة بين الصور في سياقها.

ومن ثم أقيمت هذه الدراسة على ما يلي:

مقدمة وثلاثة مباحث:

المبحث الأول: السمات البلاغية العامة في سورة الرحمن

المبحث الثاني: التحليل البلاغي لصور المقابلة المعنوية في سورة الرحمن.

المبحث الثالث: موازنات عامة بين صور المقابلة.

الخاتمة: وفيها أثبت أهم ما توصلت إليه الدراسة

فهرس المصادر والمراجع

فهرس الموضوعات

والله أسأل التوفيق والسداد والقبول.

المبحث الأول

السمات البلاغية العامة في سورة الرحمن

بين يدي سورة الرحمن:

تباينت آراء العلماء حول مكية ومدنية سورة الرحمن، يقول جلال الدين السيوطي:(سُورَةُ الرَّحْمَنِ: الْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّهَا مَكِّيَّةٌ وَهُوَ الصَّوَابُ وَيَدُلُّ لَهُ مَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالْحَاكِمُ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: "لَمَّا قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَصْحَابِهِ سُورَةَ الرَّحْمَنِ حَتَّى فَرَغَ قَالَ: مالي أَرَاكُمْ سُكُوتًا لَلْجِنُّ كَانُوا أَحْسَنَ مِنْكُمْ رَدًّا مَا قَرَأْتُ عَلَيْهِمْ مِنْ مَرَّةٍ: **{فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}** إِلَّا قَالُوا: وَلَا بِشَيْءٍ مِنْ نِعَمِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ فَلَكَ الْحَمْدُ ".

قَالَ الْحَاكِمُ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ: وَقِصَّةُ الْجِنِّ كَانَتْ بِمَكَّةَ.

وَأَصْرَحُ مِنْهُ فِي الدَّلَالَةِ مَا أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي مَسْنَدِهِ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي نَحْوَ الرُّكْنِ قَبْلَ أَنْ يَصْدَعَ بِمَا يُؤْمَرُ وَالْمُشْرِكُونَ يَسْمَعُونَ: {فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى تَقَدُّمِ نُزُولِهَا عَلَى سُورَةِ الْحِجْرِ)[1]

ومن ذلك ما قاله ابن إسحاق: (قال وحدثني يحي بن عروة بن الزبير، عن أبيه، قال: كان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله – ﷺ– بمكة عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه– قال: اجتمع يومًا أصحاب رسول الله – ﷺ–، فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط، فمن رجل يسمعهموه؟ فقال عبد الله بن مسعود: أنا، قالوا: إنَّا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلًا له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه؛ قال: دعوني فإنَّ الله سيمنعني. قال: فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى، وقريش في أنديتها، حتى قام عند المقام ثم قرأ: **{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}** رافعًا بها صوته **{الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ}**.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن/ جلال الدين السيوطي/ ص ٤٩، ٥٠/ ت: محمد أبو الفضل إبراهيم/ الهيئة المصرية العامة للكتاب/ ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م

قال: ثم استقبلهم يقرؤها. قال: فتأمَّلوه فجعلوا يقولون: ماذا قال ابن أم عبد؟ قال: ثم قالوا: إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد، فقاموا إليه، فجعلوا يضربون في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ. ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثاروا في وجهه، فقالوا له: هذا الذي خشينا عليك؛ فقال: ما كان أعداء الله أهون عليّ منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينّهم بمثلها غدًا، قالوا لا، حسبك، قد أسمعتهم ما يكرهون)[1]

وهذا حاكم في التوجيه إلى مكيتها، ويضاف إليه موضوع السورة وما قصدت إليه، وضبطا لتناول هذا الموضوع يمكننا تقسيم موضوعات السورة إلى ما يلي:

- **مقدمة السورة:**

بتلك الآيات الأربع الأولى (**الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)**) يفتتح البيان الكريم بما تفردت به السورة عن غيرها (الرحمن) وهو الاسم الكريم الدال على جلائل النعم وعظائمها وأصولها[2]، وهو أبلغ استهلال لما جاء بعده من نعم جليلة وآلاء عظيمة، استحقت أن تكرر بعدها (**فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**) وزيد هذا الاستهلال جلالا بما فيه من تشويق وإثارة وشحذ للتفكير فيما سيرد بعده من آثار رحمته وتمام نعمته، يقول الطاهر بن عاشور: (وافتتح باسم الرَّحْمنُ فَكَانَ فِيهِ تَشْوِيقُ جَمِيعِ السَّامِعِينَ إِلَى الْخَبَرِ الَّذِي يُخْبِرُ بِهِ عَنْهُ إِذْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ لَا يَأْلَفُونَ هَذَا الْاِسْمَ قَالَ تَعَالَى: (**قَالُوا وَمَا الرَّحْمنُ**) [الْفرْقَان: ٦٠] ، فَهُمْ إِذَا سَمِعُوا هَذِهِ الْفَاتِحَةَ تَرَقَّبُوا مَا سَيَرِدُ مِنَ الْخَبَرِ عَنْهُ، وَالْمُؤْمِنُونَ إِذَا طَرَقَ أَسْمَاعَهُمْ هَذَا الْاِسْمُ اسْتَشْرَفُوا لِمَا

(١) الموسوعة في صحيح السيرة النبوية/ أبو إبراهيم محمد إلياس عبد الرحمن الفالوذة/ ١/ ٤٠٩/ مطابع الصفا-مكة/ ط١-١٤٢٣هـ

(٢) ينظر/ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل -جار الله الزمخشري / ١/ ٤٥/ مطبعة مصطفي الحلبي -مصر -سنة ١٣٩٢هـ .

سَيَرِدُ مِنَ الْخَبَرِ الْمُنَاسِبِ لِوَصْفِهِ هَذَا مِمَّا هُمْ مُتَشَوِّقُونَ إِلَيْهِ مِنْ آثَارِ رَحْمَتِهِ.)[1]

ثم أعقب بنعم أصيلة جليلة، أولها (علم القرآن) وهو النعمة الأعظم التي بها هديت البشرية ورحمت وأخرجت من الظلمات إلى النور، ولهذه المكانة الأسمى استهلت سورة الكهف بالحمد والثناء على المنعم على عباده بإنزال القرآن الكريم على الهادي البشير **(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا** (الكهف/ ١)) وصيغة علَّمَ تدل على المبالغة في المعنى وتكثيره، مما يتطلب ممارسة ووقتا، وهذا جانب من رحمة الله، إذ تفضل بتعليم كتابه مرة بعد مرة رحمة منه وفضلا، وتحديد المعنى بإسناد الفعل إلى الضمير العائد إلى الرحمن تعظيم لشأن القرآن وتبيان لجلاله، وإذا ذكرت نعمة تعليم القرآن فإن شخصية من عُلِّم القرآن وعَلَّمه أمته حاضرة في القلب ظاهرة في الفكر –صلى الله عليه وسلم.

وثني بنعمة **(خَلَقَ الْإِنْسَانَ)** وهو السيد في الكون–لا له–والمتنعم بما أودع فيه من نعم، والمتجمل بما أوجد فيه من مكونات إبداع الخالق وجمال عطائه، ففي الصحراء القاحلة وردة زاهرة، وفي الحرارة اللافحة نسمة ناعمة، وبين الجبال سهول، وفي التكاليف يسر، وفي الأحداث تربية وعبر، والله من قبل ومن بعد حفيظ ومعين، خلق الإنسان خلية صغيرة وحيدة في الرحم، فترعاه الرحمة لحظة بلحظة ومرحلة فمرحلة، قال تعالى في سورة الانفطار: **(يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨))**

وخص (الإنسان) بالذكر لما في ذلك من الإشارة إلى صفاته المعنوية والروحية والإنسانية، والتي لا تعلو وتكتمل وتظهر في سلوكيات الناس ومواقفهم وتوجهاتهم إلا بالنعمة السابقة (تعليم القرآن) فهو النور الذي لا يتصور

(١) التحرير والتنوير/ الطاهر بن عاشور/ ٢٧/ ٢٣٠/ الدار التونسية للنشر ١٩٨٤م

للبشرية طهارة ولا صفاء ولا رقيا حنونا ولا تحضرا رحيما إلا بهذا الكتاب الكريم، والمبصر ببصره والمدرك ببصيرته شئون الأمم يوقن بذلك ويدعو له.

ثم خصت نعمة (عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) بالذكر بعد الخلق، لكونها فارقة بين هذا الذي قصد تكريمه **(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا** (الإسراء/٧٠)) وغيره من الحيوانات، فأصفح عما يقصد، وأبان عما يريد، وعبر عن خواطره ومشاغله، وتجاوب مع الآخرين وتفاعل معهم، ومع أن اللسان واحد، إلا أن لغاته شتى، مما يشهد بعظمة الرحمن وكبريائه وسعة قدرته وشمول رحمته **(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ** (الروم/ ٢٢)) وأنت الخبير بما وراء عطف هذه النعمة على خلق السموات والأرض ثم تقديمها على اختلاف الألوان من دلالة على عظيم شأنها وبيان قدرها وتعدد منفعتها، وهذا سر اصطفائها بعد نعمة خلق الإنسان.

وبذكر هذه النعم يمتلئ المتلقي بعظيم آثار اسم الله الرحمن وجلال نعمه، ويتوجه إليه بالحمد والثناء على ما أولاه من إحسان ونعيم في الدنيا، يعقبه لمن آمن وشكر نعيم الآخرة، وببيانها يتكشف ما ستتناوله السورة، وما ستحتوي عليه، مما يوقفنا على جمال مفتتح السورة وبلاغتها.

- **البيان عن تعدد النعم وتفصيلها:**

تكشف عن ذلك الآيات: **(الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١)**

يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٢٤) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥) كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠))

البيان في تلك الآيات عن نعم الله تعالى التي نراها في الشمس والقمر، والنبات والشجر، والسماء والأرض، والفاكهة والنخل والحب والريحان وخلق الإنسان من صلصال والجان من مارج من نار والمشرقين والمغربين والتقاء البحرين والبرزخ واللؤلؤ والمرجان والجوار المنشآت، وما بينها من حقائق العدل والفناء وبقاء وجه الله ذي الجلال والإكرام وتوجه الجميع إليه، وما له–سبحانه–من شئون يبديها لا يبتديها.

وبدئ ببيان نعمة تيسير سبل الحياة للإنسان، فالشمس المضيئة المشرقة والقمر المنير المؤنس بحسبان مقدر ونظام دقيق، والزرع والشجر ينقادان للخالق العظيم، ثم ذكرت السماء المرفوعة بغير عمد، والأرض الموضوعة للأنام والممهدة لإقامة حياتها، فيستخرج منها فاكهته وطعامه، ويلحظ في بناء النظم تلك الثنائية القائمة على التقابل، فالشمس والقمر يقابلان الزرع والشجر، وعبر ب (النجم) لينقل المتلقي مما في جهة السماء إلى ما في الأرض بصورة ملفتة ومثيرة للتفكير للوقوف على المراد بالنجم، هل هو النجم المناظر للشمس والقمر، أو النبات المناظر للشجر، وبما أن الشمس تشير إلى جنس النجوم، واقتران النجم بالشجر، فإن المتلقي يدرك أنه النبات المتسق مع الشجر، وب (حسبان) و(يسجدان) تتقرر حقيقة استسلام تلك المخلوقات وخضوعها لخالقها–في قلب المتلقي، وتلزمه الحجة، وتشعره بالانكسار والضعف أمام تلك الحقيقة الكونية، والتي لا يملك أمامها إلا الانسجام مع ما يحيط به من كل جانب.

ثم رتب على ذلك الثنائية بين ذكر السماء والأرض، فقدمت السماء لكونها الأكبر جرما وليتسق تقديمها مع تقديم الشمس والقمر، ثم ثني بذكر الأرض حاضنة الزرع والشجر، وفي اختيار (رفع) مع السماء، للدلالة على أن (العالم العلوي رفيع القدر، إذ هو مبتدأ أحكامه، ومتنزّل أوامره ونواهيه لعباده، وسكن ملائكته الذين يهبطون بالوحي على أنبيائه)[1] وبهذا اتسق ذكر قيمة العدل والتأكيد عليها، دون إفراط أو تفريط، وهو عدل شامل، به تستقيم دنيا الناس وتستقر، وبه تسعد حياتهم وتبتهج، فالعدل من أعظم آثار رحمة الله بعباده، فكرر (الميزان) ثلاث مرات (تشديدا للتوصية به، وتقوية للأمر باستعماله والحث عليه)[2] ووضع المظهر موضع المضمر احتفاء بهذه القيمة العظمى.

ومع الأرض عبر بالفعل (وضع) لدلالته على الخفض والحط وما في ذلك من استقرار ييسر سبل حياة الأنام، وتمكينهم من الانتفاع بجميع منافعها، يقول ابن فارس: (الواو والضاد والعين: أصل واحد يدل على الخفض [للشيء] وحطه)[3] وبالنظر إلى رفع السماء وعلوها وحط الأرض وانخفاضها يظهر التضاد بين الفعلين فيوضح المعنى ويظهره، ويؤكد أن الانقطاع بين مصدر النور والسمو (السماء) ومصدر المادة والطاقة وأسباب المعيشة (الأرض) إفساد لحكمة الخلق وتشويه للحياة التي قدر لها أن تكون متناسقة مستقيمة هانئة.

ولذا عُدِّدَت النعم التي استبطنتها رحمة الله رحم الأرض، مبدوءة بالفاكهة ثم النخيل ثم الحب ومختتمة بالريحان، ووراء هذا الترتيب دلالة على عظيم نعم الله تعالى وتنوعها، وكفايتها لتحقيق جانبي الحياة الهانئة، وكان البدء والختام تنعيما، فاكهة وريحانا، وبينهما حصر لما يقتات عليه الإنسان والحيوان، يقول

(١) تفسير المراغي/ أحمد بن مصطفى المراغي/ ٢٧/ ١٠٧/ مصطفى الحلبي/ ١٣٦٥هـ-١٩٤٦م

(٢) الكشاف/ الزمخشري/ ٤/٤٤٤/ دار الكتاب العربي-بيروت/ط٣/ ١٤٠٧هـ

(٣) مقاييس اللغة/ مادة وضع/ دار الجيل/ ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م

أبوحيان: (وبدأ بقوله: {فاكهة}، إذ هو من باب الابتداء بالأدنى والترقي إلى الأعلى، ونكر لفظها، لأن الانتفاع بها دون الانتفاع بما يذكر بعدها.

ثم ثنى بالنخل، فذكر الأصل ولم يذكر ثمرتها، لكثرة الانتفاع بها من ليف وسعف وجريد وجذوع وجمار وثمر.

ثم أتى ثالثاً بالحب الذي هو قوام عيش الإنسان في أكثر الأقاليم، وهو البر والشعير وكل ما له سنبل وأوراق متشعبة على ساقه، ووصفه بقوله: {ذو العصف} تنبيهاً على إنعامه عليهم بما يقوتهم من الحب، ويقوت بهائمهم من ورقه الذي هو التبن.

وبدأ بالفاكهة وختم بالمشموم، وبينهما النخل والحب، ليحصل ما به يتفكه، وما به يتقوت، وما به تقع اللذاذة من الرائحة الطيبة.

وذكر النخل باسمها، والفاكهة دون شجرها، لعظم المنفعة بالنخل من جهات متعددة، وشجرة الفاكهة بالنسبة إلى ثمرتها حقيرة، فنص على ما يعظم به الانتفاع من شجرة النخل ومن الفاكهة دون شجرتها.)[1] وفي تعدادها تنوع يتسق مع طبيعة الحياة وحاجات النفس البشرية بدنا وروحا، مما يقتضي إدراك ما وراء ذلك من رحمة ولطف وحنان ومَنٍّ يلفت إلى الاستهلال باسم الله (الرحمن) والتوجه إليه حمدا وسلاما.

ثم جاءت المقابلة بين خلق الإنسان وخلق الجان، لإظهار جانب من سعة قدرته تعالى وشمول إرادته، فهذا خلق من طين وذاك خلق من نار، وقد اصطفي هنا التعبير ب (صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ) والصلصال: الطين الجاف[2]، أما الفخار (فهو الجرار لصوته إذا نقر كأنما تصور بصورة من يكثر التفاخر)[3] وشبه به إما لمجرد الصوت، أو للإشارة إلى ضعف الإنسان كالضعف

(١) البحر المحيط/٨/ ١٩٠/ دار إحياء التراث العربي
(٢) المفردات في غريب القرآن/ الراغب الأصفهاني/ مادة/ صلل/ ٢٨٤ ت/ محمد سيد كيلاني/ دار المعرفة بيروت
(٣) السابق/ مادة/ فخر/ ٣٧٤

الموجود في المصنوعات الفخارية، وهو الأنسب لقوله تعالى: (خلق الإنسان ضعيفا (النساء/ ٢٨)) ومع الجان ذكر (من مارج من نار) و(المرج الخلط والمروج الاختلاط...و(مارج من نار) لهيب مختلط)[١] وهذا التقابل يظهر ما بين الجنسين من اختلاف الطبائع وخصوصياتها، فالإنسان ضعيف، وهذا الضعف ناتج عن البرودة واليبوسة والهدوء في مقابلة ما في طبيعة الجان من حرارة وسرعة حركة وثورة اللهب وتأججه، وقدم خلق الإنسان على خلق الجان، لكون الإنسان هو المقصود بالتكريم والتنعم بهذه النعم، وللمناسبة بين الصلصال وذكر الأرض قبله[٢]، ووراء التشبيه والمقابلة تذكير الإنس والجن بمبدأ خلقهما، وإحسان الله إليهما، مما يستدعي شكره تعالى والانقياد لمنهجه (القرآن) رحمة منه وتفضلا، وكما يقول أبو السعود: إنه (تمهيدٌ للتوبيخِ على إخلالِهم بمواجبِ شكرِ النعمةِ المتعلقة بذاتي كلِّ واحدٍ من الثقلينِ)[٣]

ثم التفت البيان الكريم إلى آية الشروق والغروب، فالأولى دالة على حالي النور والدفء والإشراق ودبيب الحركة والحياة الذي يعلو صفحة الوجود، ثم الثانية الحانية الرقيقة الساكنة الهادئة، ويتواصل نسق الأسلوب المعتمد الثنائية في تعديد النعم (رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ) وقد جاءا مفردين وجمعا، وقد علل الراغب لذلك قائلا: (والْمَشْرِقُ والمغرب إذا قيلا بالإفراد فإشارة إلى ناحيتي الشَّرْقِ والغرب، وإذا قيلا بلفظ التّثنية فإشارة إلى مطلعي ومغربي الشتاء والصّيف، وإذا قيلا بلفظ الجمع فاعتبار بمطلع كلّ يوم ومغربه، أو بمطلع كلّ فصل ومغربه، قال تعالى: رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ (الشعراء/ ٢٨)، رَبُّ

(١) السابق/ مادة/ مرج/ ٤٦٣

(٢) ينظر البحر المحيط/ ٨/ ١٩٠، وأسلوب المقابلة في سورة الرحمن وأثره في المعنى/ د/ علي زكريا محمود الخضر/٧٩/ المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية/ ع٧ (أ/ب)١٤٣٢هـ-٢٠١١م

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم/ أبو السعود/٨/ ١٧٩/ دار إحياء التراث العربي بيروت

الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (الرحمن/ ١٧)، بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ (المعارج/ ٤٠))[١] ولما كانت الكلمة القرآنية لا تأتي إلا في حاق موضعها اتساقا مع جملتها وسياقها–فإن اصطفاء التثنية في سورة الرحمن فلكونها اختارت نمط الثنائية فيما سبقهما وفيما لحق بهما، كما أن المخاطب في السورة الثقلان الإنس والجن، وهي آيات كونية ملفتة إلى سعة رحمة الله تعالى، وجلال قدرته في تنوع مسرح الحياة ومظاهرها.

ومن آيات في جهة السماء إلى صفحة أرضية يتنعم الإنسان بها ويقيم بها ومنا جوانب من حياته: **(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٢٤))** والتقابل بين نوعي البحرين: العذب ويشمل جميع الأنهار، والمالح ويحتوى جميع البحار والمحيطات–يظهر القدرة المسيطرة والرحمة الشاملة، وعبر بالفعل (مرج) لدلالته على أنه تعالى أرسلهما وتركهما يلتقيان[٢]، لكنهما لا يتجاوزان ما حدد لهما بما فيهما من حاجز من صنع الله القدير، ليقف المتلقي على هذه الآية المبهرة المستنطقة القلوب والملهمة الألسنة بالحمد والثناء على الله العظيم.

ثم بين النظم الكريم بعض المنافع الجليلة لهذه النعمة وهي اللؤلؤ والمرجان وهما حيوانان تتخذ منهما حلي غالية الثمن عالية القيمة، ويمتن الله على عباده بهما[٣]، وفي الجمع بينهما إضافة لكونهما من أصول حيوانية دلالة على التنوع الذي يتناسب مع حب الناس للتغيير والتبديل.

---

(١) المفردات في غريب القرآن/ مادة/ شرق/٢٥٩، وينظر/ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز/ الفيروزآبادي/ مادة/ شرق/٣/ ٣١١/ ت/ محمد علي النجار/ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية/ القاهرة ١٤١٦هـ–١٩٩٦م

(٢) مقاييس اللغة/ مادة/ مرج

(٣) في ظلال القرآن/ سيد قطب/ ٦/ ٣٤٥٣/ دار الشروق/ ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٣ م

ثم اختص نعمة تسير الفلك في البحار (وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام) ومن خصائص النظم مجيء (له) الدالة على الملكية والوصف (المنشآت) المعبرة عن توفيق الله لعباده في صنعها وإنشائها، والتشبيه بالأعلام (الجبال) المبين عن ضخامتها، وبمجموع النظم تتبين رحمة الله بعباده الموجهة إلى اسمه الرحمن المستهل به (فهي تجري بقدرته. ولا يحفظها في خضم البحر وثبج الموج إلا حفظه ولا يقرها على سطحه المتماوج إلا كلاءته. فهي له سبحانه. وقد كانت – وما تزال – من أضخم النعم التي من الله بها على العباد، فيسرت لهم من أسباب الحياة والانتقال والرفاهية والكسب ما هو جدير بأن يذكر ولا ينكر. فهو من الضخامة والوضوح بحيث يصعب التكذيب به والإنكار)[1]

ثم يكشف النظم عن الحقيقة الثابتة وإن غفل عنها الغافلون **(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠))** ولكلمة (كل) دلالة مفجعة وظلال ملهبة فلا يستثني شيء ممن عليها من الفناء، والتعبير بالعاقل أدل على دخول غيره في الحكم، واختيار الاسمية أدق في تناسب دلالتها على الثبات مع المقصود من السياق بأنه القادر على الخلق والقادر على الإفناء، وهي صورة موجزة تقابل بفنائها وهلاكها ما بدت عليه الصورة السابقة ذات النعيم والبهجة المديدة، ليتأمل المتلقي واقعه ويتجنب مساوئه ويستعد للغائب المنتظر، وفي مقابل صورة فناء كل من عليها يجيء قوله: (وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) ومما يتلبث أمامه التعبير بالوجه، والأقرب ما ذكره الزركشي من أنه من باب المجاز المرسل، حيث أطلق الجزء وأراد الكل، فأطلق الوجه تعبيرا عن الذات[2] وعقيدتنا (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١الشورى/)) ثم دلالة

---

(١) السابق.

(٢) ينظر/ البرهان في علوم القرآن/ ٢/ ٢٦٣/ ت/ محمد أبو الفضل إبراهيم/ دار إحياء الكتب العربية بيروت/ ط١/ ١٣٧٦هـ-١٩٥٧م، والاشتراك اللفظي في القرآن الكريم- بين النظرية والتطبيق/ محمد نور الدين المنجد/ ٢٣١/ دار الفكر-دمشق/ ط١/ ١٤١٩م-١٩٩٩م

مجيء (ربك) في هذا السياق على تشريف النبي وتكريمه وتخفيف ما في الفناء من ترهيب وتهويل عنه-ﷺ، وختم الآية ب (ذو الجلال والإكرام) ناظر إلى ما سبق في سياق السورة، يقول البقاعي: ({ذو الجلال} أي العظمة التي لا ترام وهو صفة ذاته التي تقتضي إجلاله عن كل ما لا يليق به {والإكرام} أي الإحسان العام وهو صفة فعله)[1] وبه تكون صفة الجلال والعظمة متسقة مع دلالة النعم المسطورة على القدرة والهيمنة والجلال، وتكون صفة الإكرام والإحسان متوافقة مع دلالتها على المن والتنعيم والرحمة التي أسبغت النعم والمتنعم.

وكشفا عن جانب افتقار المخلوقات إليه سبحانه، وغناه عنهم، ولإفنائه لهم وبقاء وجهه الكريم جاء قوله: (يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) فالحاجة التي يلجؤون بها إليه تعالى تناقض خلودهم، كما أن قصده تعالى لقضاء الحوائج برهان الغنى ودليل دوام البقاء، وكما جاء الموصول (من) في (كل من عليها فان) بدلالته على شمول الفناء غير العاقل من باب أولى، فقد دل على صدور السؤال من جميع المخلوقات أيضا، وبمجيء الآية بعد (ويبقى وجه ربك...) تطمين للقلوب وبث روح الرجاء والأمل، فهو -جل في علاه- له وحده البقاء والخلود، فلا يخشى من نسيان ولا ضياع، وهو من آثار رحمته تعالى المستهل بها.

- البيان عن أهوال يوم القيامة ووعيد الله للمشركين: **(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (٣١) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢)**

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور/ ١٩/ ١٦٦/ دار الكتاب الإسلامي-القاهرة.

هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آَنٍ (٤٤) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥)).

التهديد في السورة قاطع وحاد، افتتح بالمضارع المقرون بالسين (سنفرغ) ولما كان الله تعالى لا يشغله شيء عن شيء ولا صوت عن صوت عز في علاه، فإن التعبير به يزيد التهديد هولا، يقول الفيروزأبادي: (الفراغ في اللغة على وجهين: الفراغ من الشُغُل معروف، والآخر: القصد للشيء، (والله تعالى لا يشغله شيء عن شيء)، ومنه قيل في قوله تعالى: (سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثقلان))[1] وتزيده بنت الشاطئ بيانا بقولها: (فرغ للأمر توفر له وأخلى نفسه من كل ما عداه. ومنه آية الرحمن)[2]، والسين تؤكد التهديد والوعيد وتكثف ظلالهما بأن ذلك–وإن تأخر–كائن لا محالة، وبناء الفعل على صيغة الجمع لا الإفراد (سأفرغ) فيه تعظيم وترهيب، وزيد الوعيد هولا بالجمع (لكم) ولم يأت بالمثنى (لكما) اتساقا مع (الثقلان) قصدا إلى الأفراد.

ولا تزال الثنائية التي بني عليها الأسلوب ظاهرة في قوله: (أيها الثقلان) وهما الإنس والجن (سميا بذلك لأنهما ثقلا الأرض)[3] وهذا مما اختصت السورة به، إذ لم يرد مثله في غيرها، وقد كثرت مادة الثقل كثيرا في غيرها، ولعل السر في ذلك هو تصعيد معنى الوعيد وشموله لكلا الجنسين المكلفين، وللمحافظة على نمط التثنية الذي بنيت عليه السورة، وصار التصعيد متواليا بدءا من المضارع المقرون بالسين، ثم صيغة جمعه، وجمع الضمير (لكم) وباختصاص السورة ب (الثقلان) وبالنداء المحذوف الأداة إيجازا في مقام الوعيد والتهديد، فالأمر–جد– لا تطيقه سموات ولا أرض ولا جبال، فكيف بمن

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز/ مادة/ فرغ/ ٤/ ١٨٥، وينظر/ المفردات في غريب القرآن/ مادة/ فرغ/ ٣٣٧.

(٢) التفسير البياني للقرآن الكريم/ ١/ ٧٣/ دار المعارف–القاهرة/ ط٧.

(٣) الكشاف/ ٤/ ٤٤٨/ وينظر/ روح المعاني/ ١٤/ ١١١.

يتضاءل أمامهم؟! وفي التهديد والوعيد تحذير قبل الفوت، فأعقبت بقوله: (فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) والتحذير نعمة جديرة بالحمد والثناء على الله الكريم.

ويعقب الوعيد تحد وتعجيز: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا...) وذكرهما بعد (الثقلان) تصريح بعد إبهام، وتفصيل بعد إجمال، وأسلوب النداء للبعيد في مقام التبكيت والتقريع يفيد بعدهم عن الخالق المبدع المنعم الذي أحاطت نعمه بهما، واجتماعه مع الأمر (تنفذوا) المفيد التعجيز يدل على أنه يفيد تحديهما ويصعد من معنى أسلوب الامر، ويمكننا ملا حظة نمط التصعيد يسري في السياق–كما بين في الآية السابقة– فالنداء للبعيد، ثم التصريح بهما بعد الإبهام، ثم الشرط ب (إن) دون (إذا) لتفيد تقليل شأنهم والاستهزاء بإمكاناتهم وتحقير استطاعتهم، ثم بقوله: (من أقطار السموات والأرض) سواء حاولا من أقطار كل منهما منفردا أو منهما معا، ثم بأسلوب النفي والاستثناء (لا تنفذون إلا بسلطان) قصر صفة على موصوف، دحضا لإنكار منكر، وجحود جاحد، مما يزيد التعجيز تعجيزا، فمن يملك السلطان غير خالقه، جل في علاه، وكررت مادة النفاذ ثلاث مرات (تنفذوا/ انفذوا/ تنفذون) والتعبير عن الهرب من امر وقدره للدلالة على أن التحدي في أي خروج مما قدر لهما، فهم عنه عاجزون.

ثم صعد بالجملة المضارعة المهيبة (يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران) وصيغة المضارع مفيدة تجدد إرسال الشواظ والنحاس واستمراريته، فلن يجدوا منه مهربا، والشواظ: اللهب الخالص من الدخان، والنحاس: الدخان الذي لا لهب فيه[1]، ولا مانع من إرادة حقيقة النحاس المذاب، فهو الأقرب للمقام التحدي والتعجيز، لقسوته وشدة ارتفاع حرارته، ثم

(١) ينظر تفسير القرآن العظيم/ ابن كثير/٧/ ٤٥٩/ ت/ محمد حسين شمس الدين/ دار الكتب العلمية–بيروت/ ط١/ ١٤١٩هـ

ختم بأسلوب النفي (لا تنتصران) الموجز والحاسم في نفي نصرهم وتحقيق نفاذهم.

ثم بدأت مشاهد القيامة تترى، بدءا من انشقاق السماء، ومشهد ذلة المجرمين وأخذهم بالنواص والأقدام، وسنتناول درسها تفصيلا في المبحث الثاني.

- البيان عن صور النعيم للمتقين: (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١))

والبيان كاشف عن خصوصيتهما، ومحددا نعيمهما، ومذكرا بفضله تعالى على من خاف مقامه، بأن أحسن إليه وتفضل عليه، بما تسر به نفسه، وبما تقر به عينه، ففيهما عصون نضرة، وعيون تجري، وفرش من إستبرق، وجناهما قريب، وحور عفيفة لم ينل منهما إنس ولا جان، حظين بجمال يخلب الألباب، إحسانا من الله جزاء إحسانهم، وسنتناول خصائص التراكيب وخصوصيات الصفات في المبحث الثاني.

- البيان عن صور النعيم في ومن دونهما جنتان: **(وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَامَّتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِئِينَ عَلَى**

رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨))

هو مشهد جنتين غير السابقتين، لم يحدد السياق من سيحظى بهما، لهما ظل كثيف، وفيهما عينان نضاختان، وفيهما فاكهة عظيمة متنوعة ونخل ورمان، وحور قصرن على من يفوز بهما، لم ينل منهن إنس ولا جان، يتنعمون برفرف خضر وعبقري حسان، فما أكرم الرحمن الكريم! وسنفصل درسها البلاغي في المبحث الثاني.

السمات البلاغية للبيان الكريم في سورة الرحمن فيما يلي:

لكل سورة قرآنية، مفرداتها المصطفاة، ونمطها التركيبي، وسمتها الاسلوبي، وصورها المبينة، وبديعياتها المؤكدة للمعاني والموضحة جماليات النظم، وسورة الرحمن شاهد كريم على هذا الإعجاز الجليل، الذي يعين على التعريف بالحق، ويستحث كوامن الخير في النفس البشرية لتنهض بما هي مخلوقة لأجله، من صحة توحيد، وصدق إيمان، وصواب عبادة، وحسن أخلاق، وجميل سلوك، وبناء فكر، وقيام حضارة إنسانية راقية، ومما لمسته من سمات السورة البلاغية ما يلي:

- **بلاغة الاستهلال وحسن الانتهاء:**

وهما موطنان عني البلاغيون بهما، وحددوا شروط بلاغتهما والإجادة فيهما، فالمفتتح إما يجذب المتلقي ويستثيره ليعرف ما بعده، وإما يصده وينفره ويقطع العلاقة بين النص ومتلقيه، والختام هو آخر ما يعلق بفكر المتلقي وعاطفته، فإن كان حسنا جعل لما قيل أبلغ الأثر، وإن كان فاقد الإجادة فإن ما سبق مثل سائرٍ مرَّ ولم يترك أثرا، بل قد يسيء إلى القائل والمقول.

وقد جاءت الاستهلالات القرآنية بليغة مبهرة معجزة، وها هي سورتنا الكريمة تستهل باسمه (الرحمن) وهو -كما سبق- مشوق لمعرفة ما بعده، ومثير للاهتمام للوقوف على آثار رحمته، وقد تسمت به السورة، وهي فريدة بهذا فلم تتسم سورة أخرى بأي اسم من أسمائه تعالى، فسورة الإخلاص التي اختصت

باسمه (الصمد) لم يجعل لها وسما، وقد ورد الاسم الجليل (الرحمن) في سورة مريم ستة عشر مرة بما لم تحظ به سورة أخرى ومع ذلك لم يجعل لها علما، مما يدفعنا إلى النظر في وراء كل ما ورد فيها من آثار اسمه الرحمن وفيوضاته، وكانت أولها نعم كبرى (علم القرآن/ خلق الإنسان/ علمه البيان) ثم توالت النعم، إلى أن ختمت بما يعود إلى البدء ويتسق معه: (تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) فهو مؤذن بانتهاء البيان الكريم، مع دلالة صيغة (تفاعل) على المبالغة في المعنى بوصوله إلى منتهاه، بركة وخيرا وفضلا، وفي الختام تربية قائمة على الرحمة (اسم ربك) وبركة الاسم دال على بركة المسمى، وفي البدء (الرحمن) فانعطف الختام على البدء، وتلاحم معه.

ومما يتلبث أمامه في سياق السورة ورود اسمه تعالى (رب) واحدا وثلاثين مرة في تكرار آية (فبأي آلاء ربكما تكذبان) ومرتين مع المشرقين والمغربين، ومرتين مضافا إلى كاف خطاب النبي المصطفى–صلى الله عليه وسلم– ثم مرة واحدة مضافا إلى ضمير الخائف من مقام ربه، بمجموع ست وثلاثين مرة، ومن معانيه التربية والتنشئة حالا فحالا، مع معني الحفظ والرحمة والحماية، فاتسق هذا الحضور لربوبيته تعالى مع شمول رحمته.

- البدء بما ينشأ عنهما ضياء النهار وإشراقه، وسكون الليل ودفئه وأنسه (الشمس والقمر) وهما الألصق بمجريات الحياة والمعيشة والراحة، وإشراقة الشمس واكتساب القمر نوره منها، تلمح إلى إشراق القلب بالقرآن وتأثره بهدايته، فكان الشأن تقديم هذه النعمة على غيرها.
- وثني بما هو مرتبط بمعيشة الإنسان التي لا غنى عنها، وهي الزرع والشجر، فمنهما طعامه وثمر تفكهه وظله ومتنزهه وواحة راحته، ولكون النعمة الأولى في جهة العلو أعقبها بما بين يديه وبما من شأنه رؤيته أينما ألتفت.
- ثم رتبت على هذا النسق نعمتا رفع السماء وما يرتبط بجهة العلو من قيمة العدل، ووضع الأرض وما يتنعم به ويتقوت، وفيها من الدلالة على أن

الحياة لا تستقيم ولا تبتهج إلا بنعمة العدل أولا ثم ما لا يستغنى عنه من مخرجات رحمة الله من أرضه، وفي الربط بين جهة السماء وقيمة العدل برهان على سموها وعظم شأنها بما تتضاءل أمامه الثمار والظلال ونعم الحياة المادية، وفيها توجيه إلى أنها لا تكتمل إلا إذا قرنت بتوجيه من وحي السماء، وبه لفت إلى نعمة تعليم القرآن المفتتح بها.

- قدم خلق الإنسان على خلق الجان لأنه المقصود الأول بالتكريم والسيادة في أرض الله، وخصت السورة بما ذكر من خلقهما (من صلصال كالفخار/ من مارج من نار) لكونهما الأنسب في مقام تعدد النعم، ففي الصلصال صوت وتعدد مستوياته مما يعطفنا على سر من أسرار (علمه البيان) كما فيها من الضعف والحاجة إلى حفظ الله ورحمته، وفي المارج توهج ولهب وثورة وحركة، لا يكبح جماحها إلا توفيق الله ومنهجه وهدايته، وهو ما يوجهنا إلى اسمه الرحمن.
- ثم جاءت نعمة التقاء البحرين وما بينهما من حاجز حتى لا يطغى أحدهما على الآخر، لتتنوع مصادر الحياة وتتناسق، ثم اختصت السورة بنعمة الفلك المشبهة بالجبال الضخمة المحمولة على الماء بقدرة الخالق العظيم، وصار الإنسان والجان بهذا الترتيب محاصرين بنعم الله العظيمة، ومحاطين بسعة رحمته، ومدركين بجلاله وسلطانه.
- أنهي تعداد النعم بنعمة الفناء وأعقبتها نعمة بقاء وجه الله الكريم، ليتمكن الإنس والجن من كبح جماح الغرور والنسيان، وليظلا على أهبة الاستعداد لترك الحياة بما احتوت وحسن الإقبال على الله الباقي أبدا، واتفق أن يوجه إلى أنه الصمد المقصود بالسؤال وقضاء الحاجات، وأنه الذي يبدي من شئون خلقه ما يظهر رحمته وهيمنته (يسأله من في السموات والأرض...)
- وختمت كل نعمة بقوله: (فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) ويستوقفنا معها ثلاثة أمور:

١- التثنية: وتعددت الأقوال فيها، والذي عليه أكثر المفسرين أنهما الإنس والجن، يقول الشوكاني: (الْخِطَابُ لِلْجِنِّ وَالْإِنْسِ لِأَنَّ لفظ الأنام يعمّهما وغيرهما، ثُمَّ خَصَّصَ بِهَذَا الْخِطَابِ مَنْ يَعْقِلُ. وَبِهَذَا قَالَ الْجُمْهُورُ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ فيما سيأتي: سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا مَا قَدَّمْنَا فِي فَاتِحَةِ هَذِهِ السُّورَةِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَهَا عَلَى الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، وَقِيلَ: الْخِطَابُ لِلْإِنْسِ، وَثَنَّاهُ عَلَى قَاعِدَةِ الْعَرَبِ فِي خِطَابِ الْوَاحِدِ بِلَفْظِ التَّثْنِيَةِ)[1] وبتدبر قوله تعالى في مستهل السورة (علم القرآن) ندرك أن تعليمه صلى الله عليه وسلم كان للإنس والجن، ومن ثم يكون الخطاب لهما، وفي السياق بعد ما يؤكد هذا كقوله: (أن لا تطغوا في الميزان* وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) فهذا تكليف، والجنسان المكلفان هما الإنس والجن، وكقوله: (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ) وكقوله: (يا معشر الجن والإنس..) فصرح بهما في الموضعين.

وقد خصت سورة الرحمن بالتثنية والثنائية أيضا، مبدوءة بقوله تعالى: (الشمس والقمر بحسبان) والتثنية بقوله: (والنجم والشجر يسجدان) وختمت بقوله: (فبأي آلاء ربكما تكذبان) وهذه الكثرة من التثنية تشع في نظم السورة إيحاءات إلى نفس المتلقي، فتشعر بما اشتملت عليه من مقاصد وتوجيهات شعورا عميقا، وتحس بما سطر فيها من آثار رحمته تعالى وإنعامه إحساسا قويا مؤثرا، وتجري كلماتها وأنماطها التركيبية على اللسان كالدهان في سهولة ويسر، وتضفي جوا تنغيما يعذب وقعه على الآذان في اتساق مع المعاني وانسجام معها، بل إن هذا التنغيم رافد ملهم من روافد المعنى، وفي التثنية أيضا تناسب

(١) فتح القدير/ الشوكاني/ ٥/ ١٦٠/ دار ابن كثير، دار الكلم الطيب-بيروت دمشق/ ط١/ ١٤١٤هـ

مع المعنى العام للسورة وتلاؤم مع النسق اللغوي لها، وهذا الحضور لظاهرة التثنية والثنائية ونمط سياقها، جعل السورة متفردة بين أخواتها.

٢- أسلوب الاستفهام: وواضح من سياقه العام وخاص تركيبه أن غرضه التقريع والتوبيخ على ما وقعوا فيه من تقصير وتفريط وجهل ونسيان، ومن مستتبعات التركيب ظلال من حمل المخاطبين على التصديق بفضله تعالى وسعة رحمته والاعتراف بما جاءت الآية عقبه من نعمة وفضل، وفي الاستفهام إثارة للوجدان، وشحذ للتفكير، ليقف المتلقي على ماورائياته من معان وظلال وإيحاءات، فإذا تحقق الهدف من قلبه ثبت واستقر، وكان أدعى للقيام بما يقتضيه من التصديق والحمد لله المنعم بجلائل النعم.

٣- تكرار الآية وراء كل نعمة تفضل الله بها وسطرها في كتابيه: المنظور والمقروء، وغرضه تقرير نعمه تعالى، والتعريض بتقريعهم وزيادة في توبيخهم على شركهم وجحودهم مع دلائل رحمته، وبراهين ألوهيته ووحدانيته.

وللتكرار هنا خصوصية فلم يكن لمجرد التوكيد، وإنما جاء في كل موضع مرتبط بنعمة قبله، فتشبع بها ومن التقريع على التكذيب أو الجحود بتلك النعمة، فمجيئها بعد نعمة رفع السماء والتأكيد على قيمة العدل غير مجيئها بعد نعمة وضع الأرض ومخرجات فواكهها ونخيلها وريحانها، وهي فيهما تغاير مجيئها بعد (كل من عليها فان) كما أن مجيئها عقب (هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون) لا يماثلها بعد الحديث عن نعيم الجنان الأربع وصفاتها، فلكل موضع خصوصية وتفرد، يكاد ينفي عنها صفة التكرار، بل إن محمد حسين أبو الفتوح نفى عنه التوكيد، قائلا: (فهذا التكرار ليس توكيدا، لأنه تكرار في اللفظ لمعان متعددة، فكل آية مكررة إنما هي للمعنى الذي ذكر قبلها

وليس في هذا تكرار للتوكيد)[1]، وتواصل السياق وترابط بيانه عن النعم المتعددة في الدنيا والآخرة كآثار رحمته تعالى وعطاءات اسمه الرحمن تعيننا على إمساك معنى التوكيد في تكرارها، بالإضافة إلى تنوع مواقعها بتنوع النعمة التي قبلها، واستمداد معناها وظلالها من تلك النعمة.

- اصطفاء الكلمة: وكما هو المعهود في اصطفاء الكلمة القرآنية ذات الدلالة الخاصة بموضعها في سياقها بما لا تؤديه غيرها، فنجد مفردات السورة تنسجم فيها الدلالة مع جرسها الذي يؤدي دورا لا غنى عنه في خصوصية المعنى المقصود، فتأمل كلمة (جنى) ودلالتها الدقيقة على الثمر الناضج القريب، يقول ابن فارس: (الجيم والنون والياء أصل واحد، وهو أخذ الثمرة من شجرها، ثم يحمل على ذلك، تقول جنيت الثمرة أجنيها، واجتنيتها. وثمر جني، أي أخذ لوقته) فجمعت في الكلمة دلالتان: القرب، والنضوج، ووازن بينها وكلمة (ثمر) تدرك مالها من خصوصية الدلالة.

واختيرت كلمة (نجم) لتكون انتقالا مما ذكر في جهة السماء (الشمس والقمر) إلى ما تخرجه الأرض من (زرع وشجر) فإذا بالمتلقي يستدعي فكره، ويستحث ملكته اللغوية، ليقف على المراد بالنجم، هل هو نجم السماء، أم نجم الأرض؟ وهذه طريقة للانتباه وجمال يستدعي تحريك ملكات الجمال، كذلك التثنية في (ربكما) وفي (المشرقين والمغربين) مما يثير المتلقي ليعرف المراد.
ثم تلبث أمام هذه الدقة المبهرة في اختيار كلمة (نضاخة) في (فيهما عينان نضاختان) فالفرق بينها وكلمة (نضاحة) في قوة اندفاع الماء وتفجره، يقول ابن جني: (النضح للماء ونحوه، والنضخ أقوى من النضح، قال تعالى: (فيهما عينان نضاختان) فجعلوا الحاء–لرقتها–للماء الضعيف، والخاء–لغلظها–لما

---

(١) أسلوب التوكيد في القرآن الكريم/ ٢٥/ مكتبة لبنان–بيروت/ ط١/ ١٩٩٥م

هو أقوى منه)[١] وقد أحدث ذلك الإيحاء اللفظي الجمالي المنبعث من صوت حرف الخاء الثقيلة على اللسان، فأعطيت ثقل المعنى وغزارته، بخلاف الحاء الخفيفة ذات الدلالة الأخف والأيسر[٢] وعلى هذا النحو تنسج كلمات السورة في سياقها معانيها وخصوصية دلالتها إما عن طريق صوت حروفها، أو إيحاءاتها، أو صورتها، مما يشهد لها بالتفرد، وسنتناول بعضا من ذلك في روافد التنغيم.

- كان الحضور الأظهر للجملة الفعلية الماضوية، لكونها الأليق بسياق تعدد النعم، ففيها دلالة مؤكدة على سبق هذه النعم وتأهيل الخالق الحياة وتيسير سبلها قبل وبعد خلق الإنس والجن، مما يؤكد سعة رحمته وتفضله على عباده، وتوجيه إلى وجوب حمده والثناء عليه وجميل الانقياد إليه، ثم تغير النمط فيما بعد اتساقا مع ما قصد بيانه على النحو الذي سنبين عنه في المبحث الثاني.
- تُلْمَسُ في السياق ظاهرة التقديم، فقد قدم المسند إليه (الرحمن) على المسند (علم...خلق...علمه...) فهي أخبار لم تقرن بعاطف، لمقام تعداد النعم، فكل منها نعمة قائمة بذاتها، جديرة بأن تكون خبرا مستقلا، والتقديم بديع ومهيب، لما يفيده من إثارة وتشويق، فيكون الاستهلال مثيرا للمتلقي للوقوف على ما يكون من آثار رحمته تعالى، ولما يقرره من تخصيص بأنه تعالى الذي علم القرآن وليس بشرا، وأنه الذي خلق الإنسان وأنه الذي علمه البيان[٣]، وبهذا كان الاستهلال حافلا بالعديد من أوجه البلاغة والإعجاز.

---

(١) الخصائص/ أبو الفتح ابن جني/ ٢/ ١٧٥، ١٥٨/ ت/ محمد علي النجار/ دار الكتب المصرية/ القاهرة ١٩٥٢م

(٢) ينظر/ القرائن بين اللغويين والأصوليين/ د/ نادية رمضان النجار/ ٣٩٨/ دار الكتب العلمية.

(٣) ينظر/ التحرير والتنوير/ ٢٧/ ٢٣٠، ٢٣١

كما قدم المسند إليه على خبره الجملة الفعلية (والنجم والشجر يسجدان) لإفادة التأكيد، بأن سجودهما وانقيادهما لله تعالى الذي خلقهما، وليتفق نمط التركيب مع نمط ما قبله: (الشمس والقمر بحسبان)، كما قدم خلق الإنسان على خلق السموات والأرض وخلقهما أكبر من خلقه، لكونه كرم بالانتفاع بما خلق الله له فيهما، ولأنه المأمور بالعبادة والانقياد لمنهج خالقه، وقدم خلق الإنسان على خلق الجان لما ذكر سابقا وللفت الانتباه إلى تفضيل درجته ورفع مكانته فقد أمر الله إبليس بالسجود لآدم تكريما له، وفي مقام التحدي والتعجيز بالأمر المعجز المهول قدم الجن، لكونه الأقدر على القيام بما لا طاقة للإنسان به (يا معشر الجن والإنس عن استطعتم...) وكذلك لتقدم خلق الجن.

كذلك قدم المفعول في (السماء رفعها/ الأرض وضعها) اهتماما بالمقدم ولفتا إلى مكانته في الدلالة على قدرة الله وعظيم سلطانه، ومثله في الدلالة على الاهتمام تقديم الجار والمجرور في قوله: (فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام)، وعلى خلا ف النعم المستهل بها توسط حرف العطف بين (الشمس والقمر...) و(النجم والشجر...) ثم بين (السماء رفعها...) و(الأرض وضعها..) رعاية للتناسب والتقابل بينهما، يقول الزمخشري أن البيان الكريم: (ردّ الكلام إلى منهاجه بعد التبكيت في وصل ما يجب وصله للتناسب والتقارب بالعاطف)[1] بعد ترك العاطف في مقام تعداد النعم الكبرى المستهل بها، ثم جاء التقديم في البيان عن صفات الجنان كما سنتناوله فيما بعد.

- **الصورة البيانية:**

اتسم نظم القرآن بالإعجاز المبهر، والبلاغة السامقة، وكان للصورة البيانية حضورا ملموسا، يظلل النظم جمالا ووضوحا وكثافة، وقد جاءت الصورة البيانية في سورة الرحمن في مواقع محدودة تطلبها المقام، ودعا إليها المعنى،

(١) الكشاف/ ٤/ ٤٤٣، ٤٤٤، وينظر/ روح المعاني/ الآلوسي/ ١٤/ ٩٩، ١٠٠/ ت/ علي عبد الباري عطية/ دار الكتب العلمية-بيروت/ ط١/ ١٤١٥هـ

من ذلك الاستعارة في قوله: (النجم والشجر يسجدان) بتشبيه انقيادهما طبعا بانقياد المكلفين طوعا وهو المسمى بالسجود لغة، فسمي المشبه باسم المشبه به استعارة تبعية[١]، تظهر المعقول في صورة حسية تأكيدا وتصويرا لحال هذين المخلوقين، ليقف الإنس والجن على هذه الحال من الانقياد المطلق لله الخالق، فيمتثلان لأمره ويلتزمان طريقه المستقيم، وزيدت الصورة تألقا بهذا التوهم في (النجم) ويقصد به: (إتيان المتكلم بكلمة، يوهم باقي الكلام- قبلها أو بعدها- أن المتكلم أراد اشتراك لغتها بأخرى، أو أراد تصحيفها أو تحريفها، أو اختلاف إعرابها، أو اختلاف معناها، أو وجها من وجوه الاختلاف، والأمر بضد ذلك فإن ذكر الشمس والقمر يوهم السامع أن النجم أحد نجوم السماء، وإنما المراد النبت الذي لا ساق له)[٢] فكان بذلك وصلة للانتقال من نعمة الشمس والقمر إلى هذه النعمة، بما يتطلبه ذلك من تفكير وتدبر لإزالة هذا التوهم.

ومن ذلك خمس تشبيهات، في قوله: (خلق الإنسان من صلصال كالفخار) ليكشف عن الصفة المشتركة بين المشبه والمشبه به، كما بيناه سابقا، ولا يتمكن المتلقي من إدراكها إلا بهذه الصورة، ولم يتطلب خلق الجان هذا التصوير، إذ قام التعبير بتبيين المعنى وإلقائه في روع المتلقي تاما واضحا دون حاجة إلى طريقة أخرى، كما جاءت الصورة التشبيهية في قوله: (وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام) والوجه الضخامة، والأعلام جمع علم وهو الجبل، ولكن الصورة اختصت الأعلام مشبها به، لما في مادة من الدلالة على (أثر بالشيء يتميز به عن غيره)[٣] فسمي به الجبل لكون

(١) حاشية محي الدين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي/٨/ ٥٢/ ضبط وتصحيح/ محمد عبد القادر شاهين/ دار الكتب العلمية-بيروت لبنان/ ط١/ ١٤١٩هـ-١٩٩٩م

(٢) الجدول في إعراب القرآن الكريم/ محمد عبد الرحيم صافي/ ٢٧/ ٨٨/ دار الرشيد دمشق/ ط٤/ ١٤١٨هـ

(٣) مقاييس اللغة/ مادة/ علم

المسافرين يتخذونه علامة مرشدة، وأمارة موجهة للوصول إلى ما يصبون إليه، مما يبين عن ضخامة السفن وعلوها، وهذا التصوير دقيق المعنى، واسع الظلال، ناسب الدلالة الحصرية من تقديم الجار والمجرور (له) فملكيتها بجريانها ومسيرها لله وحده، وجاء التشبيه متواليا في صورتين متعانقتين في (فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان) فشبه السماء بالوردة، لبيان صفة اللون (الأحمر) وهي صورة عجيبة حقا، فالسماء العظيمة حينما تشقق يوم القيامة تلتقط لها صفة مشتركة مع الوردة المشعة محبة وجمالا ووداعة، ولم يكن هذا مرادا، وإنما قصد إلى تقريب ما تبدو عليه السماء في هذا اليوم الرهيب من لون مائل للحمرة، إلى المتلقين بلون الوردة الحمراء التي رأوها كثيرا، فلديهم سابق معرفة بها، وتبدو السماء زرقاء بديعة، وتحولها للون الأحمر الذي خبروه في الوردة مرعب مخيف، وهذا التصوير أبلغ في تثبيت هذا المعنى المقلق الرهيب في قلوب المتلقين، ثم شبه السماء بالدهن ذوبانا وسيلانا واضطرابا، وجاء المشبه والمشبه به في الصورة الأولى اسما لكان وخبرا لها، لإفادتها صدق الصورة وواقعيتها وتأكيدها، بينما اختصت الثانية بالكاف لقرب الطرفين وتناظرهما في الصورة المشتركة بينهما، فجمع بالصورتين ما يكون عليه حال السماء حين تشققها، لونا وهيئة، مما يدفع المتلقي إلى اكتساب ما من شأنه أن يدخله في معية الله وحفظه ورحمته في هذا اليوم العصيب، وتجنب ما يكون سببا في هلاكه.

كما نرى صورة التشبيه في قوله: (كأنهن الياقوت والمرجان) فجمع في الصورة الجمال كله، فمن جانب تدل الصورة على الصفاء والنقاء، ومن جانب آخر تبين اجتماع اللون الأحمر مع الأبيض، ثم ظلل ذلك بمكانة هذين الحجرين الكريمين الثمينين، واختيرت كأن للحاجة إلى تأكيد المشابهة، إذ لا يمكن تخيل هذا الجمال الفريد الذي اختص الله به حور العين لأهل تقواه والخوف من مقام الرب الجليل.

كما جاء المجاز المرسل في قوله: (ويبقى وجه ربك...) والمراد ذاته تعالى، تبارك اسمه وتعالى جده، واحد في ذاته وواحد في صفاته وواحد في أفعاله: (ليس كمثله شيء)

وجاءت الكناية عن صفة في قوله: (قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان) وهي كناية عن صفة العفة، وفرق بين ما جاء عليه البيان الكريم، وما يستعمل من اللغة المباشرة بمثل: عفيفات...، ففي الكنية تصوير يجعل العفة مجسمة في تلك الصورة الحسية المشاهدة، فهن يمنعن أطرافهن عن غير ازواجهم عفة وطهارة، كما أن في الكناية ظلال من الذاتية التي ملئت بها نفوسهن حتى منعن اطرافهن وتحكمن فيها.

وهي صور قليلة إذا ما قورنت بعدد آيات السورة، مما يقطع بأن البيان الكريم بلغ الدقة المعجزة في استعمال صوره التي لا تبدو فيه إلا وفق مقتضى المقام واستدعاء المعنى المروم لها، لكن جاء صور كلية في مشاهد ثلاثة ستتناولها الدراسة في البحوث التالية.

- المقابلة: هي من الفنون البديعة التي تكشف المعاني وتظهرها جلية خلابة، وقد احتوت سورة الرحمن بالعديد من مواقعها، كالمقابلة بين (الشمس والقمر/ النجم والشجر) وبين (خلق الإنسان من صلصال كالفخار/ خلق الجان من مارج من نار) ...، وكانت المقابلة المعنوية حاضرة فيما سيدرس فيما بعد.
- **التنغيم وروافده:**

التنغيم من أهم ما يميز هذه السورة الكريمة، ولم تكن فاصلتها المتفردة هي الرافد الأوحد، وإنما تعددت تلك الروافد بما بين الحروف من تجانس، وما للكلمات من يقاع صوتي مبهر، فالفاصلة غلب عليها صوت (النون) حيث جاء في سبعين موضعا، ثم صوت (الميم) في ستة مواضع، بينما جاء صوت (الراء) في موضعين، وقد تطلبها المعنى واقتضاها المقام، وبرهان ذلك مجيء الميم في قوله تعالى: (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) وقوله: (تبارك اسم

ربك ذي الجلال والإكرام) وهما موضوعان يتحدثان عن الله تعالى، فتغيرت الفاصلة (ليكون هذا التغيير في الفاصلة دالا على اختلاف ما لله تعالى عما لغيره)[1]فلم تأت فاصلة السورة إلا لمزيد بيان للمعاني وتحديدها وتنغيم الأسلوب.

وبهذا الاصطفاء اتسمت الفاصلة بوضوح أصواتها، وبتجانسها وتناغمها فيما بينها، ومع الكثير من المعاني الداخلية في الآيات، وفي جمعيها مدود إلا قوله تعالى: (كل يوم هو في شأن) ولعل سر ذلك ما فيه من حسم وجزم تبارك اسمه وتعالى سلطانه.

وأجمل بهذا الاستهلال الذي يعد مقدمة إلى هذا النص التنغيمي المعبر (الرحمن/ القرآن/ الإنسان/ البيان) ثم ما تلاه حتى تأتي (فبأي آلاء ربكما تكذبان) وتكرارها واحدا وثلاثين مرة، نجد تنغيما متميزا وجرسا متجانسا يزيد الإحساس بنبض المعاني، ويعين على الاستجابة لتوجيهاتها.

كما يلفت التعبير ب (جنى) الذي تفردت بمجيئه هذه السورة، وبمجاورته (الجنتين) وتناسق صوت النون فيهما مع نون (دان)–إلى هذا الجناس الذي أحدث صدى صوتيا متكاملا موحي بذلك النعيم الكريم المتعدد الألوان والمذاقات، فتناسب التنغيم مع ظلال الجنى القريب، وإذا تأملنا قرب الشين والظاء في (شواظ) وما في هذه من جرس قوي، نجده يتناسب مع المعني المخيف في مقام التحدي والتعجيز، وبهذا وغيره نقف على حقيقة الروافد التنغيمية العديدة التي تطلبتها المعاني، وظللتها بجو تنغيمي يجعل المتلقي في حالة شعورية ووجدانية مقبلة على البيان الكريم قراءة وتدبرا وتأثرا

إن السياق العام للسورة بسماته البلاغية يتناول بيان سعة رحمة الله تعالى، وعظيم آثار هذه الرحمة البادية في تلك النعم العظيمة التي أحاط الله بها الإنس والجن في الدنيا والآخرة، والبيان عنها يقصد إلى تحقيق ثلاثة أمور:

(١) سورة الرحمن–دراسة بلاغية وأسلوبية/ إبراهيم عوض/ ٢٥/ شبكة الألوكة

أولهما الاستدلال بها على ألوهية الله الكريم ووحدانيته. وثانيهما: برهان على إثبات البعث، وكل ما هو كائن يوم القيامة، فمن خلق الخلق ودبر شئونه قادر على بعث الناس وتنعيم أهل محبته وتعذيب أهل مخالفة أمره، وثالثهما: المن بها على عباده وإحسانه إليهم بما خلق لهم تنعيما وتكريما، وما يترتب على ذلك من وجوب شكره وحمده والثناء عليه بما هو أهله، وهذا ما عليه نعمة الخلق في البيان القرآني، وبخاصة في المكي منه، وهو ما يجعلنا نقول بمكيتها وتوجهها توجه البيان في السور المكية، من الدعوة إلى التوحيد والتوجه إلى الإله الخالق العظيم، والتصديق بما جاء عنه، والإيمان بالبعث والدار الآخرة.

المبحث الثاني

التحليل البلاغي لصور المقابلة المعنوية في سورة الرحمن

يتناول بيان سورة الرحمن ثلاثة مشاهد من مشاهد القيامة، والتي أعقبت الوعيد الشديد **(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ (٣١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦))** وهو المشهد الذي لا يطيقه إنس ولا جان، فالخالق العظيم يقصد إلى حسابهم، ولن يتمكن أحد من الهرب من أقطار السموات والأرض، وإذا حاول أحد الهرب من أمر الله تعالى فإن لهب النار الخالص من الدخان والنحاس المذاب من شدة حرارته ينتظرانه، وهذا التهديد المهول تمهيد لتلك المشاهد الثلاثة، وقد بدأت بما ينسجم مع هذا التهديد، وهو مشهد انشقاق السماء وحال المجرمين في هذا اليوم العصيب، ثم ثنيت المشاهد بمشهد جنتي من خاف مقام ربه، وثلثت بمشهد الجنتين اللتين من دونهما، وكل مشهد يرسم صورة متكاملة أمام بصر وبصيرة المتلقي، ليقف على ما ينتظره يوم الانشقاق، ليحسن التوجه والاختيار، وسنتناول كل صورة بالتحليل والتعليل، ثم نتلبث أمام دور المقابلة بينها في وضوح المعاني ورسم الغائب المنتظر، ومنزلتها في مجال التربية والتوجيه.

صورة انشقاق السماء ووصف حال المجرمين:

قال تعالى: **(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (٤٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥))**.

المعنى العام:

والفاء استئناف بهذا المشهد التصويري لهذا الحدث الضخم، الذي تضطرب فيه السماء وتنشق وتتلون بالألوان الحمراء وتذوب ذوبان الدهان، حينئذ لا يسأل أحد عن ذنبه من الإنس والجن من هول الموقف وشدته، وتظهر على المجرمين علامات يعرفون بها، فيؤخذون بالنواصي والأقدام تنكيلا وتعذيبا معنويا وحسيا، ثم يشار إلى نهايتهم المخيفة (هذه جهنم) التي كذبوا بها موصوفين بالمجرمين، ويصور حالهم الأليم المهين بطوافهم بين جهنم وبين حميم آن، وفي هذا عبرة وعظة للمتلقين.

التحليل البلاغي للصورة:

وقد بني على أسلوب الشرط ب (إذا) وهي التي في الأمور المؤكدة الوقوع[١]، ليثبت هذه الصورة في قلوب المتلقين لأهميته في التربية والتوجيه، ثم يصور السماء التي انشقت بالوردة في احمرار لونها، ثم زيدت الصورة هولا بصورة أخرى تصعيدا لتأثير هذا المشهد، فصور السماء في اضطرابها تشبيها بليغا، وفي ذوبانها بالدهان تشبيها مجملا، وبمجموع التشبيهين تكون الصورة تمثيلية توضح أحوال السماء وألوانها في ذلك اليوم العظيم، وزيادة في التهويل حذف جواب الشرط، وتقديره: لرأيت أمرا مهولا عظيما[٢]، وبالشرط ودلالته الموجزة المحددة المؤكدة، ثم بحذف جوابه، ثم بالصورة التمثيلية المركبة من التشبيهين يبلغ المعنى إلى قلب المتلقي ويتمكن منه فلا يملك إلا الهرب نفورا أو الإقبال محبة واستعدادا، وبهذا البيان عقبت الآية بقوله: (فبأي آلاء ربكما تكذبان) لأن هذا التذكير يزجر عن الشر، ويوجه إلى الخير، فهو لطف أيّ لطف ونعمة جديرة بأن يوبخ عليها المنكرون والجاحدون[٣].

---

(١) ينظر/ دلائل الإعجاز/ عبد القاهر الجرجاني/ ٨٢/ ت/ محمود شاكر/ مطبعة المدني بالقاهرة، ودار المدني بجدة/ ط٢ ١٤١٣هـ

(٢) حاشية محي الدين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي/٨/ ٦٦

(٣) ينظر/ روح المعاني/ ١٤/ ١١٣

وعطفا على جواب الشرط المحذوف جاء قوله: (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان) والفاء تكشف عن أن نفي السؤال يعقب مشهد الانشقاق مباشرة، وبهذا يستبين قوله تعالى في سورة الحجر: (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢)) بأن السؤال يكون في موقف آخر، وفي التعبير ب (يومئذ) تهويل بحذف الجملة التي عوض عنها بالتنوين، (أي فيوم إذ انشقت السماء)[١] ثم دل أسلوب النفي على ما يكون من صمت مفزع في هذا الموقف، حيث لا يسأل إنس ولا جان عن ذنوبهم، وهي لحظة انتظار أصعب على النفس وأرهب للقلب انتظارا لما سيكون، وفي ذكر الإنس والجان تحديد وتبيين بأن هذا شأنهما جميعا، زيادة في التهويل من شأن هذا الموقف الذي تتبدل فيه السماء، وهذا التحذير نعمة أعقبت بقوله: (فبأي آلاء ربكما تكذبان)

ثم جاء قوله: (يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ) ليرسم مشهدا لحال المجرمين يوم تشقق السماء، وفي السياق المصور لهذا المشهد قوة وعنف، فلا يملك أحد همسا ولا يقدر أن يحدث صوتا، فقط تدل عليهم سيماهم، فتعرف شقاوتهم من غبرة وجوههم وسوادها وزرقة عيونهم، وبناء المضارع لغير فاعله يكشف عن عمومية الدلالة، فكل من ينظر إلى واحد منهم فإنه يعرفه بما يظهر عليه من سمة دالة، ووسمة كاشفة، وهذه شكل من أشكال العذاب ولون من عموم الفضيحة، مما يلقي في خاطرنا قوله تعالى في سورة عبس: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢)) فالفريقان متقابلان، كل فريق معروف بسمته، مكشوفة عاقبته، واختير التعبير بالمجرمين لدلالته على اكتسابهم الجرائم، وأعلاها التكذيب بما جاءهم من الحق، يقول الراغب: (أصل الجرم قطع الثمرة عن الشجرة،...واستعير ذلك

(١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون/ السمين الحلبي/ ١٠/ ١٧٥/ ت/ د أحمد محمد الخراط/ دار القلم–دمشق.

لكل اكتساب مكروه)[١] وإذا تدبرنا قوله تعالى في سورة هود: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥)) ندرك أن أعلى إجرامهم هو الافتراء على الله وتكذيبهم بآياته، واتسق ذلك مع التعقيب (فبأي آلاء ربكما تكذبان) ومجيئه من باب وضع الظاهر موضع المضمر (للإشارة إلى أن المراد بعض من الإنس وبعض من الجن وهم المجرمون)[٢] وبإظهار هذا الوصف يجعل المتلقي يقف على سر هذا المشهد الذي بدا فيه المجرمون يعرفون بسواد وجوههم، وبما عطف عليه في قوله: (فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ)

ونتلبث أمام أربعة أمور: **الأول:** اختيار مادة الأخذ، لما فيها من قوة وقهر[٣]، **والثاني:** تعديته بالباء والأصل تعديته إلى المفعول، لأنه (ضمن معنى يسحب كما قال أبو حيان، ويسحب إنما يتعدى بعلى، قال تعالى: يوم يسحبون في النار على وجوههم، فالأولى أن يقال ضمن معنى يدفع أي يدفعون)[٤] **والثالث:** في بنائه لغير فاعله دلالة على التهوين من شأنهم، وعلى التهويل مما وراءه ممن يصدر إليهم الأمر بأخذهم إلى مصيرهم المحتوم، **والرابع** في هيئة الأخذ حيث (تجمع الأقدام إلى الجباه، ثم يقذف المجرمون على هذه الهيئة إلى النار)[٥] والنواصي موضع الكبر والتعالي عن دعوة الحق والنفور منه، والأقدام تلك الجارحة التي حملتهم إلى الجهة البعيدة عنه، فيجمعان في مشهد يجمع بين العذاب والهوان، والبيان في الآية يعلل لعدم سؤالهم في قوله: (لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان) ومن ثم لا مجال لنكران ولا

(١) المفردات في غريب القرآن/ مادة جرم/ ٩١
(٢) روح المعاني/ ١١٤/١٤
(٣) ينظر/ المفردات في غريب القرآن/ مادة/ أخذ/ ١٢
(٤) إعراب القرآن وبيانه/ محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش/ ٩/ ٤١٠/ دار ابن كثير–بيروت/ ط٤/ ١٤١٥هـ، وينظر/ الدر المصون في علوم الكتاب المكنون/ ١٠/ ١٧٥
(٥) في ظلال القرآن/ سيد قطب/ ١/ ٣٤٥٧/ دار الشروق/ ط٣٢/ ١٤٢٣هـ–٢٠٠٣م

تكذيب، وتلك نعمة تحذر مما تستحق به هذه العاقبة، وقد حسن التعقيب ب (فبأي آلاء ربكما تكذبان).

ويمكننا رصد فروق بين هذه الآية وقوله تعالى في سورة العلق: (كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦)) فالسورتان مكيتان، وحديثهما يتناول الموضوعات المكية، وقد وردت جملة سورة الرحمن في سياق مشهد يتوعد المجرمين بما ينتظرهم من عذاب حسي ومعنوي، أما آيتا العلق فقد وردتا في سياق تهديد أبي جهل[١]، وهنا اختير الفعل (يؤخذ) للدلالة على التمكن وعدم الإفلات وبني لغير فاعله تهوينا لشأنهم وتهويلا بعدم ذكر الآخذ، بينما اصطفي (لنسفعا) في سورة العلق لتعدد دلالاته (سواد الوجه/ اللطم على الوجه/ الأخذ)[٢] وقد ذكر هذا وذاك عند أهل التفسير[٣]، ولعل في اختيارها ما يوسع من ألوان تعذيبه وإهانته يوم القيامة، فيضرب وجهه، ويؤخذ بقوة، فيعلوه بذلك السواد والغبرة، وقد جاءت ألوان من التأكيد اللافت للنظر، فأسند الفعل لضمير العظمة الذي يحيط بالنفس من كل جانب هيبة ورهبة، ولحقته نون التوكيد الخفيفة، والجملة جواب القسم الذي وطَّأت له اللام في (لئن لم ينته) وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم، فصارت الجملة جوابا مذكورا وجوابا محذوفا ملاحظا، واختيرت (إن) التي تأتي في الأمر ال غير مؤكد، للدلالة على أن هذا الذي سيواجه به هذا الطاغية هين لا يحتاج غير هذه الأداة، وفي الرحمن جمع بين النواصي والأقدام، بينما في سورة

(١) ينظر/ جامع البيان عن تأويل آي القرآن/ الطبري/ ٢٤/ ٥٣٣/ ت/ د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي/ ط١-١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، وتفسير القرآن العظيم/ ابن كثير/ ٨/ ٣٤٨/ ت/ سامي بن محمد سلامة/ دار طيبة/ ط٢-١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م

(٢) ينظر/ لسان العرب/ مادة/ سفع

(٣) ينظر/ جامع البيان عن تأويل آي القرآن/ ٢٤/ ٥٣٦، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون/١١/٦٠، وتفسير القرآن العظيم/ ٨/ ٤٣٨، وروح المعاني/ ١٥/ ٤٠٨، والتحرير والتنوير/ ٣٠/ ٤٥٠

العلق أبدلت ناصية من الناصية، ووصفت بالكاذبة قولا والخاطئة فعلا[١]، وقد خصت الناصية بهذين الوصفين، لكونها المسئولة عن الصدق والكذب والخطأ والصواب[٢]–والله أعلم بمراده–وبالوقف على فاصلة آيات سورة العلق تتحول التاء إلى (هـ) فتحدث مع فاصلة (ناديه) صوتا تنغيميا تشعر فيه نهاية وحسما وقطعا ينسجم مع السياق الرادع لهذا الجهول (كلا لئن لم ينته...) فهذا الوقف يحدث أمرين: تبيين المعاني في صورة واضحة، وإظهار تنغيم الفواصل ذات الأثر البين في المعنى المراد، كما فيها استراحة ودعوة للتفكير والتدبر.[٣]

وهذا التركيب الحافل بالمؤكدات يتسق مع مواجهة من تطاول على النبي الأكرم–ﷺ–دفاعا عنه ﷺ، وتهديدا وردعا له ومن على شاكلته، ففيها خصوصية تحديد المجرم الطاغية، بينما في سورة الرحمن مشهد عام يواجه فيه جميع المجرمين.

في هذا الموقف يقال لهم إذلالا وتسخيفا وتكذيبا: (هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (٤٤)) ولاسم الإشارة دلالة مؤثرة في هذا المشهد الذي يوقف القلوب ويجمد دماء العروق، لتمييزه المشار إليه أكمل تمييز[٤]، فالنار حاضرة والإشارة تزيدها تمييزا تصعيدا لمعنى التوبيخ والتبكيت على تكذيبهما بها، فها هي حاضرة وهم حاضرون في مشهد ذلة وانكسار وتعذيب، جمع بين نواصيهم وأقدامهم.

---

(١) نظر/ تفسير القرآن العظيم/ ٨/ ٤٣٨

(٢) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة/ يوسف الحاج أحمد/ ١٦٠/ مكتبة ابن حجر/ ط٢/ ١٤٢٢–٢٠٠٣م

(٣) ينظر/ التناسب الإيقاعي الدلالي في سورة العلق/ د/ جليلة صالح العلاق/١١/ كلية التربية للبنات–جامعة الكوفة/ البناء اللغوي في الفواصل القرآنية/ د/ علي عبد الله حسين العنكبي/ ٢٦٦/ دار صفاء–عمان/ ط١/ ١٤٣٢هـ–٢٠١١م

(٤) شروح التلخيص/ ١/ ٣١٣ دار الكتب العلمية

واختير من أسماء النار (جهنم) لتضمنه دلالتين تتلاءم مع سياق التعذيب والتهوين والتبكيت، فقعرها بعيد وشكلها كريه، يقول ابن فارس: (الجيم والهاء والميم يدل على خلاف البشاشة والطلاقة. يقال رجل جهم الوجه أي كريهه)[١] وهذا يتفق مع دلالة السياق السابق على إهانتهم وتهوين شأنهم، وأضافت النون المضافة إلى هذا الأصل الثلاثي بعدا آخر مع دلالة القبح والكراهة، يقول ابن منظور: (بِئْرٌ جَهَنَّمٌ وجِهِنَّامٌ، بِكَسْرِ الْجِيمِ وَالْهَاءِ: بَعِيدَةُ القَعْر، وَبِهِ سُمِّيَتْ جَهَنَّم لبُعْدِ قَعْرِها)[٢] وبعد القعر يزيد هول تعذيبها، فيتسق مع دلالة السياق على إرادة مجازاتهم على تكذيبهم.

وللاسم الموصول (التي) دور كبير في سياق هذا المشهد الذي تذوب من هوله الجبال، إذ يرد مبهما، وهذا الإبهام يثير الاهتمام، فتشحذ كل طاقات الذهن لمعرفة ما يراد منه، ويتوجه الاهتمام على جملة الصلة، ليتعرف على مدلول الموصول، فإذا بها تحمل عذابا معنويا مهولا، فجهنم حاضرة جاهزة لالتهامهم بقبح المنظر وبعد القعر، ثم يقال لهم: (التي يكذب بها المجرمون) تبكيتا وتسفيها، والتعبير بالمضارع عما قد مضى، ينقل حكاية كذبهم، وتصميمهم عليه، ليروا خيبتهم وسفاهة تفكيرهم، وكأن هذا الهزال العقلي والإيماني، ما زال ماثلا وجهنم مشهودة، ثم أسند الفعل إلى (المجرمون) بوضع المظهر موضع المضمر، ليتظلل المشهد بوصف الإجرام الكاشف عن استحقاقهم هذا الهوان والتبكيت والعذاب الذي لا يرى له قعرا، وكان تعدد عذاباتهم والتحذير منها نعمة جديرة بأن تعقب ب (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ).

ويكتمل المشهد بهذا اللهاث الخائف الخائب الذي يرى المتلقي المجرمين عليه: (يطوفون بينها وبين حميم آن) وتشكلت الآية من ثلاث كلمات ذات دلالات تآزرت في رسم صورتهم اللاهثة هربا أو طلبا لتخفيف الاحتراق في

(١) مقاييس اللغة/ مادة/ جهم.
(٢) لسان العرب/ مادة/ جهنم.

جهنم، فاختير الطواف دون غيره مما جاء في البيان القرآني (مشي/ سعى/ فر/ انطلق) لقدرته الدلالية على نقل مشهد دورانهم حول جهنم وحميمها، يقول ابن فارس: (الطاء والواو والفاء أصل واحد صحيح يدل على دوران الشيء على الشيء، وأن يحف به. ثم يحمل عليه)[١] فلا مجال لخروج أو ابتعاد عنهما، و(حميم) الماء الحار، و(آن) بلغ منتهاه في الحرارة[٢]، و(بينها/ بين) حددت مجال حركتم، وبينت مسار لهاثهم الملهوف، فالتقت هذه الكلمات لتقرر في نفس المتلقي المعنى المستهدف، بأن هؤلاء المجرمين (يَمْشُونَ بَيْنَ مَكَانِ النَّارِ وَبَيْنَ الْحَمِيمِ فَإِذَا أَصَابَهُمْ حَرُّ النَّارِ طَلَبُوا التَّبَرُّدَ فَلَاحَ لَهُمُ الْمَاءَ فَذَهَبُوا إِلَيْهِ فَأَصَابَهُمْ حَرُّهُ فَانْصَرَفُوا إِلَى النَّارِ دَوَالَيْكَ)[٣]، وهي حال تجمع بين خيبتهم وهوانهم وعذاباتهم وفضيحة كذبهم، ونقل هذه الحال إلى المتلقي في الحياة الآنية تهون من شأن هؤلاء المجرمين، وتضعهم في حجمهم الذي يليق بهم، وتستقر حقيقة علو أهل الحق والصدق، وأنهم–وإن كانوا في حال ضعف وتراجع–لا ينكسرون ولا يذلون، فالذل الحقيقي والانكسارة الأبدية تنتظر المنتفشين بالباطل ومرتكبي الجرائم، فتهون بذلك الصعاب، وتتحمل الأحداث، في عزة نفس وعلو همة.

واستدعى السياق مجيء (فبأي آلاء ربكما تكذبان) بعد ما اشتمل عليه من إرسال شواظ من نار، وانشقاق السماء، والأخذ بالنواصي والإقدام، وطواف المجرمين بين جهنم والحميم الآن، إذ الامتنان وأثر الربوبية يبدوان فيما وراء ذلك من التحذير والإبانة عما يقع على الكفر بالمنعم وكفران النعم، يقول أبو السعود: (وإنما الآلاء حكاياتها الموجبة للانزجار عما يؤدي إلى الابتلاء بها

(١) مقاييس اللغة/ مادة/ طوف
(٢) ينظر/ جامع البيان عن تأويل آي القرآن/ ٢٢/ ٢٣٢، والدر المصون في علوم الكتاب المكنون/ ١٠/ ١٧٧، ولسان العرب/ مادتي: حمم، وأني
(٣) التحرير والتنوير/ ٢٧/ ٢٦٤

من الكفر والمعاصي كما أشير إليه في تضاعيف تعدادها)[1]ولا يخفى أن التحذير والزجر عما يهلك ويؤلم من أجل النعم وأعلاها.

السياق يرسم صورة كلية، تحتوي على أحداث ومواقف وحركة وألوان وحال نفوس ذليلة مهانة، فالسماء تتشقق في مشهد مخيف وها هي في ثوبها الأحمر الجديد، وذابت واضربت كالدهان، فلا مجال الآن للسؤال والجواب، وها هم المجرمون الذين خدعوا بما مكنوا فيه وأوتوه من رحمة الله تعالى فاستغلوها في ارتكاب الجرائم في حق الدين وأهله–في حال الذليل المهين، حيث تعلوهم علامات السواد والغبرة والعيون الزرقاء الكريهة، فتطغي على المشهد الألوان احمرار السماء مع سواد الوجوه وزرقة العيون، والجمع بين النواصي والأقدام في مشهد رهيب مخيف كئيب.

ثم يسيطر على الصورة حضور جهنم الملتهبة المخيفة الكالحة التي لا قرار لها، فيشار إليها وهي تتلهف وتنتظر تحقيق الوعيد باصطلاء المجرمين بحممها ولهيبها، فها هي أمام المجرمين منظورة فأين إنكارهم لها وتكذيبهم بها؟!، فاليوم شأنهم الطواف بينها وبين حميمها الذي بلغ غاية الغليان، فهم يتراوحون بينهما بلا هرب ولا نجدة، فيا له ويا لها من عذاب![2].

فالصورة متكاملة متناسقة متعددة العناصر والرسوم والصور الداخلية، تنقل إلى المتلقي المشهد الذي عمدت إليه بظلاله وإيحاءاته الواصلة بين الحياة الآنية والآخرة المنتظرة، ليحذر أن يجلب على نفسه هذا الخزي وذاك العذاب، فتتجلى في وجدانه إشراقة يقين بفيض اسم ربه (الرحمن) المستهل به، وسعة رحمته التي غمرته تربية وتوجيها، وقد قرع فكره ليتدبر وطرق قلبه لينتبه باستفهام التقريع والتوبيخ على إنكار فضل الله وآثار رحمته (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم/ أبو السعود/ ٨/ ١٨٤ دار إحياء التراث العربي.

(٢) ينظر/ مشاهد القيامة في القرآن/ سيد قطب/ ٢٥١/ دار الشروق/ط٧/ ١٤٠٣هـ–١٩٨٣م.

تُكَذِّبَانِ) وقد سبق في السياق التهديد بما يقرر القصد إلى الحساب على ما سطره الإنسان في صحائفه، والتيئيس من أي مهرب أو سبيل للنجاة.

صورة (ولمن خاف مقام ربه جنتان)

قال تعالى: (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١))

المعنى العام:

ينتقل البيان الحكيم من بيان حال المجرمين المكذبين ومآلهم إلى بيان حال من خاف مقام ربه فأطاعه، وتجنب عصيانه، وجملة: (لمن خاف جنّتان) لا محلّ لها استئنافيّة[1]، و(رفع بالابتداء وبإضمار فعل بمعنى تجب أو تستقر، والتقدير ولمن خاف مقام ربه فأدى فرائضه واجتنب معاصيه خوف المقام الذي يقفه الله تعالى للحساب)[2]ويرى الطاهر بن عاشور أن الواو عاطفة عطفت الجملة على (جملة يعرف المجرمون بسيماهم إلى آخرها ، وهو أظهر لأن قوله في آخرها يطوفون بينها وبين حميم آن يفيد معنى أنهم فيها)[3] **وأميل** إلى أنها من عطف حال على حال أو قصة على قصة، عطفت حال من خاف مقام ربه على حال من المجرمين المكذبين.

---

(١) الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه مع فوائد نحوية هامة/ محمود صافي/ ٥٦٦/ دار الرشيد مؤسسة الإيمان

(٢) إعراب القرآن للنحاس/ ٤/ ٣١٤/ ط٣ ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٨ م

(٣) التحرير والتنوير/ ٢٨/ ٢٦٥/ دار سحنون

التحليل البلاغي للصورة:

والمقام: أصله محل القيام ومصدر ميمي للقيام وعلى الوجهين يستعمل مجازا في الحالة والتلبس كقولك لمن تستجيره: هذا مقام العائذ بك، ويطلق على الشأن والعظمة[١]، ويجوز أن يكون في الإضافة كناية، والمعنى: (ولمن خاف ربه لكن بطريق برهاني بليغ)[٢] ومجيء جملة (خاف مقام ربه) صلة الموصول (من) يلقي هذا المعنى الجليل في وعي المتلقي بقوة وعمق ووضوح، وتلك من سمات الأسماء الموصولة مع صلتها، فهي لافتة للانتباه، لما فيها من إبهام تكشف عنه الصلة، وهذا ما يتطلبه هذا المقام الجليل، مقام الامتنان على من اتصف بالخوف من الله العظيم، والذي يحول الحركة الحياتية إلى صلاح وإحسان، وحاجز عن كل انحراف وعصيان.

واصطفي التعبير ب(رب) لما في الإضافة إليه من (التفخيم والتهويل أو مقحم للتعظيم)[٣] وأرى فيه معنى التطمين لأصحاب هذا المقام بعد ما أبان عنه السياق من حال المجرمين المكذبين، فالربوبية تملأ العبارة بمعاني الرحمة والحفظ والرعاية والمن والعطاء، وقد تكررت الربوبية في السورة (٣٦) مرة، لتتسق ظلال الربوبية مع ما اشتمل عليه سياق السورة من آلاء تتابع تترى.

واتسق مع عطاءات الربوبية لمن خاف مقام الرب سبحانه مجيء التثنية (جنتان) وقد ذهب أهل العلم فيها مذاهب شتى، فمن قائل بأنها جنة وثنيت للفاصلة، وقد رده النحاس أوثنيت للتأكيد، ومنهم من حدد اسم الجنتين بأنهما جنة عدن وجنة النعيم، أو أن للخائف الجني واحدة، وللخائف الإنسي الأخرى،

---

(١) السابق، وينظر/ المفردات في غريب القرآن/ الراغب الأصفهاني/ ٥٤٠/ مكتبة نزار مصطفى الباز

(٢) روح المعاني/ الألوسي/ ت/ علي عبد الباري عطية/ ١٤/ ١١٥/ ط١/ دار الكتب العلمية – بيروت ١٤١٥هـ، وينظر/ الكشاف/ الزمخشري/ ٦/ ١٧/ ط١/ مكتبة العبيكان ١٤١٨ هـ – ١٩٩٨م

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم/ أبو السعود/ ٨/ ١٨٤

أو أنهما موزعتان، واحدة أعلى الجنة والأخرى أسفلها، أو واحدة سكن والأخرى متنزه، أو واحدة للطاعات والأخرى لترك المعاصي، أو لخوفه واحدة وواحدة لرجائه، ومن الباحثين من رأى أن التثنية دالة بسياقها على الكثرة[١]، والذي يظهر من السياق أنهما جنتان داخل الجنة الكبرى، اختصهما البيان الكريم بالذكر؛ لعلو شانهما، ولتطمين المتلقي الموصوف بالخوف من مقام ربه وتكريمه.

ثم ينطلق السياق في تصوير نعيم الجنتين بالانبناء على الإجمال ثم التفصيل، فالجنتان إجمال، يثير في نفس المتلقي التشوق إلى معرفة المزيد عن نعيم الجنتين وتفصيله، فتتدفق المعاني الحاملة البشارة فجاء قوله تعالى:

(ذَوَاتَا أَفْنَانٍ)

(فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ)

(فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ)

(مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ)

(فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ)

(كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ)

(هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ)

ومن أسرار النظم وجمالياته قيامه على هذا الترتيب المعجز، الذي ينقل صورة الجنتين وحال أهلهما أمام المتلقي ليعايش هذا النعيم، ويروي ظمأه مما يسمع ويشاهد، لعله يتخذ طريق هذا الفريق (من خاف مقام ربه) سبيلا؛ فيفوز معهم فوزا عظيما، فبدئ ببيان وصف الجنتين (ذواتا أفنان) و(وذواتا: تثنية ذات، والواو أصلية لأن أصل ذات: ذوة)[٢] وقد تطلبها مقام وصف الجنتين

(١) ينظر/ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم/ ٨/ ١٨٤، وجماليات دلالات التثنية والصور البلاغية والموسيقية في سورة الرحمن/ محمود شكيب أنصاري، وعاطي عبيات/ ١٠٧-١٠٩/ مجلة اللغة والأدب العربي.

(٢) التحرير والتنوير/ ٢٨/ ٢٦٥

وتفصيل نعيمهما، (قَالَ السُّهَيْلِيُّ "وَالْوَصْفُ بِـ"ذُو" أَبْلَغُ مِنَ الْوَصْفِ بِـ "صَاحِبٍ" وَالْإِضَافَةُ بِهَا أَشْرَفُ فَإِنَّ "ذُو" يُضَافُ لِلتَّابِعِ وَ"صَاحِبَ" يُضَافُ إِلَى الْمَتْبُوعِ تَقُولُ: أَبُو هُرَيْرَةَ صَاحِبُ النَّبِيِّ ﷺ وَلَا تَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ صَاحِبُ أَبِي هُرَيْرَةَ. وَأَمَّا ذُو فَإِنَّكَ تَقُولُ: ذُو الْمَالِ وَذُو الْفَرَسِ فَتَجِدُ الِاسْمَ الْأَوَّلَ مَتْبُوعًا غَيْرَ تَابِعٍ وَبُنِيَ عَلَى هَذَا الْفَرْقِ أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ: وَذَا النُّونِ فَأَضَافَهُ إِلَى النُّونِ وَهُوَ الْحُوتُ وَقَالَ فِي سُورَةِ ن: وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ قَالَ: وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ، لَكِنْ بَيْنَ اللَّفْظَيْنِ تَفَاوُتٌ كَثِيرٌ فِي حُسْنِ الْإِشَارَةِ إِلَى الْحَالَتَيْنِ فَإِنَّهُ حِينَ ذَكَرَهُ فِي مَعْرِضِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ أَتَى بِذِي لِأَنَّ الْإِضَافَةَ بِهَا أَشْرَفُ وَبِالنُّونِ لِأَنَّ لَفْظَهُ أَشْرَفُ مِنْ لَفْظِ الْحُوتِ لِوُجُودِهِ فِي أَوَائِلِ السُّورِ وَلَيْسَ فِي لَفْظِ الْحُوتِ مَا يُشَرِّفُهُ لِذَلِكَ فَأَتَى بِهِ وَبِصَاحِبٍ حِينَ ذَكَرَهُ فِي مَعْرِضِ النَّهْيِ عَنِ اتِّبَاعِهِ)[1] وذكرت النص بطوله حتى يفهم سر مجيء (ذواتا) هنا، فقد أضاف (جنتان) إلى ما بعد (ذواتا) وهو (أفنان) جمع (فنن) وهو (الغصن الغض الورق، أي: ذواتا غصون، وقيل: ذواتا ألوان مختلفة)[2] فصار بذلك المعنى أوسع وأرحب ذو ظلال مديدة، ففيهما نضرة وخضرة وألوان متناسقة التنوع، اقتضاء لمقام التكريم والتشريف والمنّ.

ثم يكتمل وصف الجنتين بقوله جل في علاه: (فيهما عينان تجريان) وإذا كان وجود النضرة في الآية السابقة يلزمه وجود الري، إلا أن نظم الآية يظهر كثرة الماء وعذوبته في هيئة جميلة وصورة متحركة جارية، ففي الجنتين عينان، ولم يذكر (الماء) ليذهب العقل في ذلك كل مذهب، وفي ذكر العينين دلالة عن الكثرة، وفي وصفهما ب (تجريان) تجدد مائهما وسهولة تناوله، ويبرق من الموصوف وصفته الحسن الفائق والجمال الرائق.

---

(١) الْإِتْقَانُ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ / للسيوطي/ ١/١٧١/ ت/ مركز الدراسات القرآنية بالمملكة العربية السعودية، وينظر/ البرهان في علوم القرآن/ الزركشي/ ٤/ ٥٦/ ت/ د/ يوسف عبد الرحمن المرعشلي، وآخرون/ ط١/ دار المعرفة بيروت لبنان.

(٢) المفردات للراغب/ ٤٩٩.

وبعد الكشف عن صفتي ري الجنتين ونضارتهما، وغزارة مائهما وسهولة تناوله، يصور كثرة فاكهتهما وتنوعها بقوله: (فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ) والكثرة دل عليها العموم (كل) والتنوع دل عليه ب (زوجان) فيتفكه من خاف مقام ربه بكل أنواع الفاكهة مما يعلم وخير مما يعلم، ويتلذذون بأصنافها المختلفة الألوان، المتعددة المذاقات، ولكون الكثرة أعم وأشمل من التنوع قدم (من كل فاكهة) وفيه كذلك حسن فاصلة.

وبين (ذواتا أفنان) و(فيهما من كل فاكهة زوجان) تناسب واتساق، لكن النظم فصل بينهما بـ (فيهما عينان تجريان) ليكون الترتيب تصاعديا مبنيا على مراعاة النظير بدءا من ذكر الجمال النضير والظلال الظليلة ثم ذكر العينين لما فيهما من الحسن الندي والري العذب ثم ثلث بما من شأنه المذاق اللذيذ[١].

ينتقل السياق من وصف الجنتين إلى بيان أهل الجنتين (مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ) والحال (متكئين) عمدة المعنى في الآية، والعامل فيه محمول على المعنى أي يتنعمون متكئين، ويجوز أن يكون راجعا إلى قوله جل وعز "ولمن خاف مقام ربه جنتان" على معنى "من" ولو كان على اللفظ لكان متكئا[٢]، ووصف باطن ما يتكئون عليه تنعما (على فرش بطائنها من استبرق) وهو الديباج الصفيق الغليظ الحسن[٣]، ووصف الباطن ليفسح المجال لخيال المتلقي، ليسبح في ضروب هذا التكريم دون حدود.

ورجع البيان الحكيم إلى ذكر إلى ذكر المجتنى من ثمار الجنتين (وجنى الجنتين دان) وغالب استعماله فيما كان غضا[٤]، ووجه ذكره بعد الحال

(١) ينظر التحرير والتنوير / ٢٨/ ٢٦٦
(٢) إعراب القرآن/ النحاس/ ٤/ ٣١٥/ عالم الكتب/ ط٣/ ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٨ م
(٣) لسان العرب/ ابن منظور/ ١/ ١٠٣/ دار صادر
(٤) المفردات غريب القرآن/ ١٣١

(متكئين....) تأكيد الأريحية التي يكون عليها أصحاب الجنتين، فكل ما تشتهيه أنفسهم يدنوا منهم على أي حال كانوا عليها (قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: تدنو الشجرة حتى يجتنيها ولي الله تعالى إن شاء قائما وإن شاء قاعدا وإن شاء مضطجعا، وعن مجاهد ثمار الجنتين دانية إلى أفواه أربابها فيتناولونها متكئين فإذا اضطجعوا نزلت بإزاء أفواههم فيتناولونها مضطجعين لا يرد أيديهم عنها بعد ولا شوك)[1] وهذا من كمال النعيم الذي يتفضل به على من خاف مقام ربه، وزيد المعنى عمقا واللفظ حسنا بالجناس بين (جنى/ الجنتين) وهو شبه الاشتقاقي، لأن الكلمتين متشابهتان في بعض الحروف ولكنهما يختلفان في الأصل اللغوي، إذ إن (جنى) المجتنى من الثمار، وأما (الجنتين) فبمعنى الجنة التي أعدت للمتقين.[2]

ويلحظ أن البيان الحكيم –كسمة عامة فيه– يلمس نعيم الجنتين لمسات سريعة، لا تثير لعابا ولا غريزة، بل تحث على أن يحقق المتلقي في نفسه هذا المقام الرفيع (الخوف من مقام ربه) وهذا ما يبدو أعمق في استقصاء جانب آخر من نعيم الجنتين: (فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ *كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ) فقد اشتمل على وصف كمالهن باطنا وظاهرا، ويفاجئنا النظم بالجمع (فيهن) على خلاف ما سبق اعتبارا ب (الجمعية في قوله: (متكئين) وقيل: فيما فيهما من الأماكن والقصور، وقيل: في هذه الآلاء المعدودة من الجنتين والفاكهة والفرش)[3] وأرى أن الحكم في ذلك السياق الذي راعى اللفظ حينا، والمعنى حينا آخر، فلما اتجه لمراعاة اللفظ جاء ب (فيهما) ولما روعي المعنى بدءا من (ولمن خاف مقام ربه جنتان) فالذي خاف مقام ربه من آدم إلى قيام الساعة هو جماعة وليس واجداً، فالخائفون كُثُر، ومن ثم

(١) روح المعاني/ ١٤/ ١١٧.

(٢) ينظر المعجم العربي بين يديك/ الفوزان وآخرون/ ١٠٧/ العربية للجميع/ الرياض/ ١٤٢٥هـ.

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم/ ٨/ ١٨٥

تكون الجنتان بهذا الاعتبار جنات، وقد ظهر ذلك في قوله: (متكئين) ولم يقل متكئ، ونظرا لهذا الجمع جيء بجمع قاصرة (قاصرات الطرف) ولزم صورة الجمع في ذلك كله الجمع في (فيهن)

ولم يذكر الموصوف (نساء أو حور) ليظهر الوصف الشريف (قاصرات الطرف) ويلقيه في وعي المتلقي، لما في هذا الوصف من أثر في سلوك الخائف من مقام ربه، وهو سلوك العفة والطهارة والسمو عن الغرائز ودناءة النفس، وصيغة اسم الفاعل مبينة عن الذاتية الطاهرة الفاعلة، وأن عفتهن صفة متأصلة، ثم يزيد المعنى تصاعدا بأنهن مصونات لم يمسهن إنس ولا جان، وإنما عبر بـ (يطمث) لدلالته في سياق النفي على عدم المس بكل صوره يقول الفراء: (الطمث الافتضاض وهو النكاح بالتدمية، طمثها يطمثها ويطمثها طمثا إذا افتضها)[1] فهن أبكار لم تفض بكارتهن، ولما ذكر الإنس احترس مما قد يتوهم بأن الجن قد نال منهن، فدفع بقوله: (ولا جان)[2]، ومع الاحتراس تمام الفاصلة.

ويختار التعبير القرآني سبيل التشبيه المرسل المجمل، لتصوير جمالهن الحسي، وحينما نقول الجمال الحسي فليس معناه تقرير حسية الصورة فقط، إذ لا تخلو كل صورة من أثرها المعنوي وسبرها غور النفس المتلقية، فالحسية هنا هي الأقدر على رسم جمالهن في قلب المتلقي وتحقيقه في نفسه، ليكون أثره أقوى في رفع همته لتحقيق هذا المقام الشريف الذي به ينال ما أعده الله له من نعيم الجنتين، ولكل مكونات الصورة التشبيهية تأثير في وجه الشبه، فالمشبه (ضمير نساء الجنتين) بما يحمل من وصفهن السابق من ذاتية عفيفة طاهرة، والمشبه به (الياقوت والمرجان) فيأخذ من الياقوت حمرته، ومن المرجان صفاء بياضه، وسر التعبير بالمرجان وهو صغار الدر ليجمع مع البياض

(١) الجامع لأحكام القرآن/ القرطبي/ ١٧/ ١٦٤/ دار الفكر
(٢) التحرير والتنوير/ ٢٨/ ٢٧٠

نصاعته[1]، وفيه تمام الفاصلة، فجمع مع حسن اللون صفاء ونضارة ولمعانا، وتزداد قيمة الصورة التشبيهية بما تحمل من تفاصيل وألوان، وعمقت الصورة بأداتها (كأن) لقوة أدائها المبين عن شدة العلاقة التشبيهية بين المشبه والمشبه به. ولما كان المستهدف من السياق تبيين ما أعد للخائفين من مقام ربهم، وتوجه هذا النعيم لإسعادهم وتنعيمهم بالقاصرات الطرف... اختصت هذه النعمة بضمير الجمع (فيهن) العائد إلى الفرش، للإشارة إلى قربهن وسهولة التمتع بهن. وما قبلها بدئ بالضمير الغائب للمثنى (فيهما) العائد على (جنتان).

ثم يختم البيان عن الجنتين بهذا التعقيب المبني على أسلوب القصر: (هلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ) واختير النفي والاستثناء لقوة دلالته في قصر الجزاء الموصوف بالإحسان على الإحسان في الأجر والعطاء، وقد تطلبه مقام تكريم الخائفين من مقام ربهم وتفصيل تنعيمهم بجنتين وما فصله البيان من صفات الجنتين وأحوال أهلهما، وأنهم جديرون به بما قدموه في أيامهم الخالية.

وأوثر التعبير بالاستفهام (هل) لغرض بلاغي وهو النفي، بدلا من النفي بأدواته لأن في إيثار التعبير بالاستفهام – في مثل هذا المقام– يبلغ بالإثارة وحركة السياق ونبضها في نفوس المتلقين مبلغا يستولي على نفوسهم، أما أسلوب النفي الصريح فلا يتحقق له ذلك، لأن الاستفهام بطبيعة صيغته فيه جذب للانتباه فإذا اجتمع جذب الانتباه مع الإثارة في بناء تركيبي قصري، بلغت الإثارة قِمَّتَها، كما أن أسلوب الاستفهام يحقق التواصل الجيد مع ما يلقى على سمعه من تكريم من خاف مقام ربه وتشريفهم، وزيد التركيب ألقا بالتعبير بالإحسان في ركني الجملة مع ما بينهما من جناس محرف لاختلاف ضبط نونيهما، فعمق المعنى وجود التنغيم الذي يعد رافدا مهما من روافد المعنى.

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم/ ٨/ ١٨٥

إن السياق في الصورة يحمل بكل مكوناته تكريما وتشريفا وتحبيرا لصور النعيم بدءا من لام الملكية (لمن) والاسم الموصول الذي يدعونا إلى التركيز على صلته (خاف مقام ربه) ثم (جنتان) وما تتميزان به من عيني الماء الجاريتين وكثرة الفاكهة وتنوعها وقرب تناولها، ثم حال أهلهما وأريحيتهما على فرش فيها حور عفيفات لا تتطلع إلى غيرهم، لم يمسهن إنس ولا جان، بلغن جمال الياقوت والمرجان.

وعطف الختام على البدء، فكما أبان عن مقامهم في (ولمن خاف مقام ربه) ختم الصورة بالثناء على ما قدموه في حياتهم بقوله: (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) فوردت صورة المعنى مرتين، فرأينا هذا الرضا عنهم وجدارتهم بالتكريم والتنعيم في أسلوبي القصر والاستفهام والتعبير بالإحسان في ركني الجملة، فهم أحسنوا والله تعالى أحسن لهم رضا وأجرا وعطاء، وقد وردت آية (فبأي آلاء ربكما تكذبان) ثمان مرات، وراء كل نعمة، للدلالة على تعظيم شأن هذه النعم التي تشكلت منها صورة (ولمن خاف مقام ربه جنتان) وأن كل نعمة جديرة بالتذكر والقيام بواجب الحمد والثناء على المنعم الجليل سبحانه وتعالى، وفي الاستفهام تقريع وتوبيخ لجاحدي النعم ومنكرها.

صورة (ومن دونهما جنتان)

(وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَامَّتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨)).

المعنى العام:

ويعطف السياق صورة ثانية لجنتين أخريين، مبينا عما تتصفان به من نعيم وفضل، فهما جنتان خضراوان، ذواتا ماء غزير من عينين فوارتين، وفيهما فاكهة كثيرة متنوعة ونخل ورمان، وفيهما من النعيم حور عين خيرات الأخلاق حسان المظهر، وهن محبوسات في خيامهن على أزواجهن فلا يتطلعن إلى غيرهم، وهن عفيفات شريفات لم يمسهن إنس ولا جان، وتبلغ الأريحية بأصحاب الجنتين المنعمين بالاتكاء على بسط خضر وفرش حسان، وهذا كله من آثار اسمه تعالى ذي العظمة والإكرام.

التحليل البلاغي للصورة:

وتبدأ الصورة بشبه الجملة (وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ) على نسق الصورة السابقة (ولمن خاف مقام ربه جنتان) وأما أصحاب الجنتين فهم المقصودون ب (من خاف مقام ربه) وذكر أن الجنتين الاولين ل(السابقون السابقون) وهاتين لأصحاب اليمين المذكورين جميعا في سورة الواقعة.(١)

والتعبير ب (دون) يزيد المعنى ثراء، لدلالة الكلمة على معنى الأقلية، فالجنتان هنا أقل في المنزلة من الجنتين السابقتين، يقول ابن فارس: (الدال والواو والنون أصل واحد يدل على المداناة والمقاربة. يقال هذا دون ذاك، أي هو أقرب منه. وإذا أردت تحقيره قلت دوين. ولا يشتق منه فعل)(٢) وتدل على معنى المغايرة، أي: أنهما غير الجنتين السابقتين، وقد ذكر الطبري والراغب في مفرداته دلالة دون على المعنيين(٣)، وهو ما فسر بهما الطاهر بن

(١) ينظر/ روح المعاني/ الآلوسي/ ١٤/ ١٢٠

(٢) مقاييس اللغة/ ت/ عبد السلام محمد هارون/ 2/ ٣١٧/ دار الفكر ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م

(٣) ينظر/ جامع البيان عن تأويل آي القرآن/ ٢٣/ ٦٩، والمفردات في غريب القرآن، ١٧٥، ١٧٦

عاشور (دون) في الآية الكريمة.[١]وأما ابن عباس رضي الله عنه فيرى أن الجنتين المؤخرتين أفضل من الأولين، وبين سر ذلك فيما سيأتي في موضعه من البحث[٢].

وجلي من الأوصاف التي حملها سياق الآيات أن الأقرب دلالة (دون) على معنى (الأقلية ونزول المرتبة) يقول صاحب الظلال: (وأوصافهما أدنى السابقتين)[٣] فقد تتابعت الأوصاف تترى:

مُدْهَامَّتَانِ

فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ

فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ

فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ

حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ

لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ

مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ

يستهل النظم بوصف الجنتين باللون الأخضر المبهج للنفس، وفي سبيل تحقيق هذا المعنى وتحقيقه في نفوس المتلقين عبر ب (مدهامتان) ومعنى مدهامة: اللون الأخضر المائل للسواد لكثافته[٤]، يقول ابن منظور: (دَهْماءُ مُدْهامَّةٌ: خضراء تَضْرِب إلى السواد من نَعْمَتِها ورِيِّها. وفي التنزيل العزيز: مُدْهامَّتان أي سوداوان من شدة الخضرة من الريّ؛ يقول: خَضْراوانِ إلى السواد من الرِّيّ، وقال الزجاج: يعني أنهما خَضْراوان تَضْرِب خُضْرتُهما إلى السواد، وكل نبت أَخضر فتَمامُ خِصْبِهِ ورِيِّهِ أن يَضْرِبَ إلى السواد. والدُّهْمةُ عند

(١) التحرير والتنوير/ ٢٨/ ٢٧٢

(٢) ينظر/ البحر المحيط/ أبوحيان/٨ / ١٩٦/ ت/ عادل أحمد عبد الموجود وآخرون/ ط ١/ دار الكتب العلمية لبنان بيروت ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م

(٣) في ظلال القرآن/ سيد قطب/ ٤/ ٣٤٥٨/ ط٣٢/ دار الشروق ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م

(٤) الجامع لأحكام القرآن/ ٢٣/ ٦٩

العرب: السواد، وإنما قيل للجَنَّة مُدْهامَّة لشدة خضرتها. يقال: اسودَّت الخضرة أي اشتدَّت)[١]وهذا الوصف ينقل للمتلقي كثرة الأعشاب وكثافتها وتداخلها، حتى تكاد العين تبصرها حقيقة، بل إن رؤية الخيال والبصيرة المستقاة من هذا البيان الكريم أعلى وأوسع وأعمق أثرا.

ويبلغ النظم جلاله في وصف الجمال الحسي للجنتين بقوله: (فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ) وليس معنى كونه حسيا خلوه من الأثر المعنوي، فالجمال الحسي متوجه إلى التأثير النفسي بتحبيب هذا النعيم إلى نفوس المتلقين ودعوتهم إلى القيام بما يجعلهم يستحقون هذا النعيم بعد فضل الله تعالى وسعة رحمته، ونضاختان من نضخ بمعنى فار الماء وجاشت به عينه[٢]، وهو دون الجري كما ذكر ابن حيان.[٣]

بهذا الوصف تكتمل الصورة الغضة النضرة للجنتين، حيث الخضرة الكثيفة المائلة للسواد مع فورة ماء العينين وجيشانه، مما يجلب للنفس سعادتها وبهجتها، فهذا النعيم المبهج للمكان الذي تتوالى فيه النعم الأخرى التي تستحق الشكر والثناء والسعي الحثيث المنبعث من تقوى الله وخشيته (ولمن خاف مقام ربه...).

وجيء بقوله: (فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ) ليقرر جانبا عظيما من طعام أصحاب الجنتين وتفكههم، والتنكير فيها جميعا يفيد الكثرة، وفي ذكر (نخل ورمان) بالذكر بعد (فاكهة) يقول (بعض العلماء: ليس الرمان والنخل من الفاكهة، لأن الشيء لا يعطف على نفسه إنما يعطف على غيره وهذا ظاهر الكلام. وقال الجمهور: هما من الفاكهة وإنما أعاد ذكر النخل والرمان لفضلهما وحسن موقعهما على الفاكهة... وقيل: إنما كررها لأن النخل والرمان كانا عندهم في ذلك الوقت بمنزلة البر عندنا، لأن النخل عامة قوتهم، والرمان

(١) لسان العرب/ مادة دهم/ دار صادر.
(٢) لسان العرب/ مادة نضخ/ دار صادر.
(٣) البحر المحيط/ ٨/ ١٩٧

كالثمرات. وقيل: أفردا بالذكر لأن النخل ثمره فاكهة وطعام، والرمان فاكهة ودواء، فلم يخلصا للتفكه، ومنه قال أبو حنيفة رحمه الله إذا حلف ألا يأكل فاكهة فأكل رمانا أو رطبا لم يحنث. وخالفه صاحباه والناس)[١]

ونخلص من ذلك بأنهما خصا بالذكر من باب ذكر الخاص بعد العام، وسره البلاغي (التنبيه على فضل الخاص وزيادة التنويه بشأنه، حتى كأنه ليس من جنس العام)[٢] فهما من جنس الفاكهة، إلا أن هذا الإطناب إشارة إلى فضلهما، وتنويها بقيمتهما، وجمال هذا اللون البلاغي يتجلى في ذكره إجمالا وإبهاما ثم تخصيصا وتوضيحا، ليكون وقعه في النفس أعلى، وفي التنعيم أحلى.

وفي بيان جانب العلاقة الخاصة من النعيم في الجنتين، يقول جل جلاله: (فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ) وكما ذكر سابقا فإن السياق اقتضى الجمع في (فيهن) تمهيدا لذكر ما في هذه الجنات من نعيم: (خَيْرَاتٌ حِسَانٌ/ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ) وخيرات جمع خيرة، وصف بني على وزن فَعْلة، وقيل: مخففة من خَيِّرة، والجمع الخَيِّرات[٣]، (والمراد بذلك المختارات، أي فيهن مختارات لا رزل فيهن)[٤] وزيدت الخيرية المختارة ألقا وعمقا بقوله: (حسان) الخلق، فوصفن بأنهن كريمات النفوس وحسناوات الخلق، وحذف الموصوف (نساء أو حور) وبهذا الحذف تلتفت عقول المتلقين إلى هذا الوصف (خيرات) لما فيه من الخيرية المختارة في نساء هاتين الجنتين ترغيبا في العمل الذي تنال به هذه الخيرات بعد رحمة الله جل في علاه.

وقد ذكرت (خيرات...) توطئة وتمهيدا للبدل (حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ) فيأتي البدل بمثابة التفسير بعد الإبهام، مما يزيد المعنى قوة وتقريرا في نفوس

(١) الجامع لأحكام القرآن/ ١٧/ ١٦٩، وينظر/ إعراب القرآن/ النحاس/ ٤/ ٣١٧
(٢) علم المعاني/ عبد العزيز عتيق/ ١٩٠/ ط١/ دار النهضة العربية بيروت – ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م.
(٣) البحر المحيط/ ٨/ ١٩٧
(٤) المفردات في غريب القرآن/ ١٦٠

المتلقين، مع لمسة جمالية بهذا البيان المعجز الوارد على صورتين: الأولى مبهمة ولافتة ومثيرة للتفكير والبحث عما يراد بالخيرات، والثانية موضحة وكاشفة عما يثار في النفوس فكرا وتساؤلا.

وإذا كان المتلقي قد تشبع بمعني الخيرية والحسن في الجملة المبهمة، فإن المعنى لديه يزاد ثراء بدلالة (حور) على معنى الجمال الحسي الملحوظ في العيون ذات التأثير البالغ، فالحور جمع: حوراء (وهي ذات الحور بفتح الواو، وهو وصف مركب من مجموع شدة بياض أبيض العين وشدة سواد أسودها وهو من محاسن النساء)[1] فجمع لهن السياق محاسن الجوهر وجمال المظهر، مقدما الجوهر ليقرر في النفوس أنه الأولى بالرعاية والاهتمام والإقبال (فاظفر بذات الدين تربت يداك)[2] ثم جيء بوصف آخر خارج عن حسن الجوهر وجمال المظهر الذاتيين، فقال: (مقصورات في الخيام) واسم المفعول سلب منهن الذاتية الفاعلة، وإنما قصرن على أزواجهن والأنس بهم، ووراء ذلك دلالة على الرفاهية والتنعم، وزيد هذا المعنى الآنس المحبب بطهرن وخلوصهن لأزواجهن (لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ) فهن أبكار لم تفض بكارتهن، وقد سبق بيانه.

ويختم السياق وصف الجنتين ببيان حال أهل الجنتين (مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ) والحال (متكئين) وكما قلنا في سابقه: أنه عمدة المعنى في الآية، والعامل فيه محمول على المعنى أي يتنعمون متكئين، ويجوز أن يكون راجعا إلى قوله جل وعز "ولمن خاف مقام ربه جنتان" على معنى "من" ولو كان على اللفظ لكان متكئا، ووصف ظاهر تنعمهم بما يتكئون عليه (رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ) فالرفرف (ضرب من الثياب مشبه بالرياض، وقيل الرفرف طرف الفسطاط والخباء الواقع على الأرض دون الأطناب

(١) التحرير والتنوير/ ٢٨/ ٢٧٤
(٢) أخرجه البخاري (٥٠٩٠) ومسلم (١٤٦٦)

والأوتاد، وذكر عن الحسن أنها المخاد)[1]وفي اللفظ سعة دلالة عن كل نعيم ظاهر مما يتكئ عليه أصحاب الجنتين، ومع الدلالة الظاهرية يجتمع الانتشار والرفرفة وهي الحركة مع الرياح مما يزيدها جمالا وحسنا، مع اللون الأخضر المدلول عليه بقوله: (خضر) وهذا غاية النعيم وكماله، بما لا يستطيع المتلقي إدراكه أو تخيله، فقربه النظم إليه بقوله: (عبقري حسان) فكأنها (من صنع عبقر لتقريب وصفها إلى العرب، وقد كانوا ينسبون كل عجيب إلى وادي الجن)[2] ولتمام المعنى والفاصلة معا ختمت الآية بقوله: (حسان) وهذا وصف خالقها، فكيف تحيط بجمالها العقول، وهذه دعوة ذات تأثير بالغ عميق إلى السعي الحثيث للفوز بهذا النعيم الذي تمتلآن به هاتين الجنتين، والهدف من هذا السعي تحقيق تلك الغاية (من خاف مقام ربه).

انتهت الصورة الثالثة التي تتناول البيان عن الجنتين اللتين دون الجنتين السابقتين، مبدوءة بالمنظر العام لهما حيث الخضة الشديدة المائلة للسواد، ثم الماء النضاخ، ثم الفاكهة الكثيرة والنخل والرمان، ثم الحور ذات الخيرية والحسن والعفاف المحبوسة على الأنس مع أزوجهن الأبكار الشريفات، ثم أريحية أصحاب الجنتين على الأبسط الخضر العجيبة الخلق الحسان، فهي صورة متنوعة كثيفة رقيقة نضرة صافية الكلمات دقيقة العبارات قصيرتها، مما يجعل المتلقي يسابق هذا النعيم بإنصات أذن واعية، وقد وردت آية (فبأي آلاء ربكما تكذبان) ثمان مرات، وراء كل نعمة، للدلالة على جلال النعم التي تشكلت منها صورة (ومن دونهما جنتان) فهي نعم تستحق القيام بواجب الحمد والثناء على المنعم الجليل سبحانه وتعالى، وفي الاستفهام تقريع وتوبيخ لجاحدي النعم ومنكرها.

(١) المفردات في غريب القرآن/ ١٩٩
(٢) في ظلال القرآن/٤/ ٣٤٥٨

حسن الختام: دقيق البيان الحكيم في جميع نهايات السور القرآنية، بديع في استخلاص زبدة المعاني العديدة والظلال المتنوعة، وحسن البدء وحسن الختام من الموضوعات التي اهتم بها البلاغيون وشغلوا الدرس البلاغي بدورهما الكبير وأثرهما البالغ في جلب الاستماع وشحذ الهمم ولفت الانتباه بدءا، وجمع المعاني وتلخيصها ختاما، مع حسن البيان ورشاقته، ليكون أبقى في السمع، وألصق بالنفس[١]، وإذا كان البدء مفتاحا للكلام، فأن الختام يجب أن يكون مؤذنا بالانتهاء،[٢] وهذا ما بلغت فيه الصورة مبلغا معجزا بدءا وختاما.

وقد ختمت السورة بقوله: (تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) وهو ختام ماجد يحمل تسبيحا وتمجيدا لله الخالق العظيم الذي سطرت السورة آلاءه الإنسانية والجنية والدنيوية والأخروية، ومن هذا شأنه ف (هو أهل أن يجل فلا يعصى، وأن يكرم فيعبد، ويشكر فلا يكفر، وأن يذكر فلا ينسى)[٣]

استهل النظم هذا الختام الكريم بهذا الخبر المقرر استحقاقه تعالى الثناء والتحميد والتمجيد، بادئا بالفعل(تبارك) من البركة والنماء وهو بمعنى عظم، وإنما خص (تبارك) بالذكر لما فيه من التنبيه على ما يفيض به الكريم من الآثار المباركة الكثيرة المتنوعة، مما يستدعي تعظيمه وإجلاله، وللصيغة (تفاعل) ثراء للمعنى بوصوله إلى منتهاه، وإسناد (تبارك) إلى (اسم) يفيد أن البركة الداعية إلى تعظيمه وتقديسه من بركات اسمه تعالى، مما يسجد القلب إجلالا، ويطلق عنان العقل ليسبح في فضاء لا حدود له، بأن هذه من آثار اسمه فكيف به جل جلاله وتعالى سلطانه، وهذا أنسب لكثرة آلاء السورة وتنوعها وسعتها.

---

(١) ينظر/ الصناعتين/ أبو هلال العسكري/ ٤٦٤/ ت البجاوي وأبي الفضل/ ط٢ دار الفكر العربي.

(٢) ينظر/ العمدة/ ابن رشيق/ ١/ ٢٣٩/ ت محمد محي الدين عبد الحميد/ / دار الجيل ط٤ ١٩٧٢م

(٣) تفسير القرآن العظيم/ ابن كثير/٧/ ٥١٠/ ت/ سامي بن محمد السلامة/ دار طيبة.

ندرك بهذا الفرق بين نظم الآية ونظم الآيات:

- (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) (المؤمنون ١٤)
- (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) (الفرقان ١)
- (تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا (الفرقان ١٠)
- (تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا) (الفرقان ٦١)
- (فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) (غافر ٦٤)
- (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (الملك ١)

في جميعها أسند الفعل إلى الاسم الجليل (الله) أو الاسم الموصول، وارتبط ذلك بنعمة عامة أو نعم محددة، وذلك (تنبيه على اختصاصه تعالى بالخيرات المذكورة مع ذكر تبارك)[١]وقد خالف ختام سورة الرحمن بالإسناد إلى (اسم الله) ليكون التعظيم لاسمه تعالى فكيف يكون له سبحانه وتعالى؟ ومن جملة أسمائه المقدسة (الرحمن) الذي استهلت به السورة الكريم، يقول الألوسي: (تعالى اسمه الجليل الذي من جملته ما صدرت به السورة من اسم الرحمن المنبئ عن إفاضة الآلاء المفصلة، وارتفع مما لا يليق بشأنه من الأمور التي من جملتها جحود نعمائه وتكذيبها، وإذا كان حال اسمه تعالى بملابسة دلالته عليه سبحانه كذلك فما ظنك بذاته الأقدس الأعلى)[٢].

وأضيف اسم إلى (رب) وهو في الأصل: التربية، وهو إنشاء الشيء حالا فحالا إلى حد التمام، وهو مصدر مستعار للفاعل، ولا يقال مطلقا إلا لله تعالى، وإذا أضيف جاز إطلاقه على غيره، كرب الأسرة، ورب المال، وذلك لكونه في الإطلاق يدل على أوصاف عديدة لا تكون مجتمعة إلا لله الخالق

(١) المفردات في غريب القرآن/ ٤٤.

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم/ ٨/ ١٨٧، وينظر/ روح المعاني/ ١٤/ ١٢٦.

المنعم العظيم كالمالك والسيد والمدبر والمربي والقيم والمنعم.[١] وبمجيئه في نظم الختام يتسق مع ما اشتملت عليه السورة من النعم والفيوضات على الإنس والجن، فهو الخالق المنعم، وقد سبق أن ذكرنا في السمات البلاغية للسورة ورود اسمه تعالى (رب) واحدا وثلاثين مرة في تكرار آية (فبأي آلاء ربكما تكذبان) ومرتين مع المشرقين والمغربين، ومرتين مضافا إلى كاف خطاب النبي المصطفى-ﷺ- ثم مرة واحدة مضافا إلى ضمير الخائف من مقام ربه، بمجموع ست وثلاثين مرة، فاتسق هذا الحضور لربوبيته تعالى مع شمول رحمته. وأضيف في الختام (رب) إلى ضمير المخاطب النبي-ﷺ- تكريما وتشريفا ورعاية وتطمينا للنبي الكريم ﷺ.

أما قوله تعالى: (ذي الجلال والإكرام) فهما وصفان لرب، يقول البقاعي: (ذو الجلال أي: العظمة التي لا ترام، وهي صفة ذاته التي تقتضي إجلاله عن كل ما لا يليق، و(الإكرام) الإحسان، وهو صفة فعله)[٢]ويقول الطاهر بن عاشور: (والجلال: العظمة، وهو جامع لصفات الكمال اللائقة به تعالى. والإكرام: إسداء النعمة والخير، فهو إذن حقيق بالثناء والشكر)[٣]، فنحن أمام صفتين: صفة ذاتية له تعالى (الجلال) وهي تناسب ما ورد في السورة من الخلق والهيمنة والعظمة، والبقاء بعد فناء الخلق، ومن ثم جاء الوصفان في الآية السابعة والعشرين (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) وأما الصفة الثانية (الإكرام) فهي صفة فعلية لله تعالى، وهي تناسب مقام الإنعام والإحسان إلى خلقه بنعمه التي اشتملت عليها السورة، وكان ذلك أبلغ ختام للسورة الكريمة.

---

(١) ينظر/ المفردات ٢٦٩، ولسان العرب مادة/ ربب

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور/ ٧/ ٣٨٥/ ت/ عبد الرازق المهدي/ دار الكتب العلمية ط١/ ١٤١٥هـ-١٩٩٥م

(٣) التحرير والتنوير/ ٢٨/ ٢٧٧

ومجيء الوصفين الكريمين بعد (تبارك اسم ربك) تكميل (والتكميل يرد على المعنى التام فيكمله)[1] فالمعنى قبله تم بما ذكر من التنزيه والتقديس والتقرير (تبارك ...) ثم جيء بالوصفين تكميلا، وبلغ بذلك المعنى غاية الكمال، وانعطف الختام على الاستهلال (الرحمن*علم القرآن*خلق الإنسان*علمه البيان) فله الكمال الداعي للتمجيد والتحميد بدءا وختاما.

(١) علم البديع/ ١٢١، وينظر/ خزانة الأدب وغاية الأرب/ ابن حجة الحموي/ ١/ ٣٧٤/ ت عصام شعيتو/ ط ١/ دار ومكتبة الهلال – بيروت ١٩٨٧

المبحث الثالث

موازنات عامة بين صور المقابلة

لا يمكن لأحد أن يزعم بأن بعض بيان القرآن الكريم أفصح من بعض، ولا بعضه أبلغ من بعض، إذ التحدي به قائم بين جميع آياته، وكذلك بين جميع سوره، فقال في الآية: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾ (الطور: ٣٤) وقال في السورة: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ (البقرة: ٢٣) فأطلق التحدي ولم يرد آية معينة، ولا سورة بعينها، وإنما كل آيات القرآن وسوره في باب التحدي على حد سواء، فجميعها نمط عال كريم من الفصاحة والبلاغة، ولذا يقول الحويني: (كلام الله أبلغ من كلام المخلوقين، وهل يجوز أن يقال بعض كلامه أبلغ من بعض الكلام؟ جوَّزه قوم لقصور نظرهم، وينبغي أن تعلم أن معنى قول القائل هذا الكلام أبلغ من هذا أنَّ هذا في موضعه له حُسْنٌ ولُطْفٌ، وهذا الحسن في موضعه أكمل من ذاك في موضعه)[1] ولا يقول بذلك عاقل، إذ لكل موضع سياقه الذي اقتضى مجيئه على نظمه الكاشف عن دقائق المعاني ولطائفها.

وتنصب موازناتنا على تبيين أوجه الاتفاق والاختلاف بين صور المقابلة الثلاثة، من حيث اصطفاء كلماتها، ومن حيث بنائها الكلي، ومن حيث خصوصيات تراكيبها، وصورها البيانية والبديعية، وتتلبث الموازنة أمام محورين: **المحور الأول:** الموازنة بين صورة انشقاق السماء وحال المجرمين المكذبين بجهنم، وصورة الجنان الأربعة. والمحور الثاني: صورة ولمن خاف مقام ربه جنتان، وصورة ومن دونهما جنتان.

وفي المحور الأول تبدو المقابلة ذات أثر كبير في بيان أحوال أهل العذاب من المجرمين المكذبين، ونعيم من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، ومن آثار المقابلة أنها تدعو وترغب، وتخيف وترهب (وإنما قدم الترهيب على الترغيب، لأن النعم الواردة في السورة كان الأولى أن تشكر بأداء حقوق الله–

(١) الإتقان للسيوطي /٤/ ١١٨

تعالى–فكفرانها أعجب، فاقتضى العطف على ذلك ببيان عقوبة الكافر بها)[1] وبهذا التضاد بين الترغيب والترهيب في سياق الحديث عن أحوال الفريقين تتضح عاقبة كل فريق، ليكون المتلقي على بينة من أمره، ولا يظلم ربك أحدا.

ومما يلفت النظر كثرة الكلمات الغاضبة المؤثرة في بناء مشهد انشقاق السماء وتصوير حال المجرمين، فالكلمات اصطفيت لتبين عن الصورة الكلية بما يحذر المتلقي من الوقوع في المصير ذاته، فتحمل الصورة حال السماء المهول من خلال تلك الكلمات: انشقت/ وردة/ الدهان/ يومئذ بتنوين العوض عن جملة تقديرها: يوم إذ انشقت السماء.. فكأن هذا الحدث العظيم كرر مرتين، ليكون تأثيره في النفس أعمق.

وأما في تحبير حال هؤلاء المجرمين فنضع اليد على هذه الكلمات الكاشفة عن سوء المصير، من ذلك: المجرمون/ يؤخذ/ النواصي/ الأقدام/ جهنم/ يكذب/ المجرمون/ يطوفون/ حميم/ آن، وهي تتناولهم وتتناول نوع عذابهم بالبيان والتمييز، فهم موصوفون بالإجرام (المجرمون) المكرر مرتين في سياق الصورة، ليكشف عن اكتسابهم الإجرام وتعييرهم به، وليبين استحقاقهم هذا العذاب، وإنذار المتلقين من اقتفاء أثرهم، ومن أعظم إجرامهم التكذيب بتعذيب المجرمين في جهنم يوم القيامة (يكذبون) بدلالته المتجددة، فهذا ديدنهم في جميع مواقفهم، وكان حالهم في جهنم من جنس تحركاتهم التكذيبية، لإضلال الناس، فهم يطوفون بين جهنم وبين حميم آن في حركة متجددة دون انقطاع أو توقف.

واصطفي التعبير بجهنم ليتحقق لهم فيها العذابان النفسي والجسدي، فهي كئيبة متهجمة، وهي بعيدة القعر لا أمل في النجاة منها، وقد ظللت الصورة بهذه الظلال المرعبة، فأشير إليها ب (هذه) تحديدا وتمييزا، فهي حاضرة وهم

(١) أسلوب المقابلة في سورة الرحمن وأثره في المعنى/ زكريا الخضر/ ٨١/ المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية/ م السابع/ ع ا، ب/ ١٤٣٢هـ-٢٠١١م

مشاهدون، وبذكر المشار إليه (جهنم) وبضميرها (يكذب بها) وفي (يطوفون بينها وبين حميم آن) ليزيد بذلك الصورة قوة وشدة وهولا.

وبنيت الصورة بدءا على أسلوب الشرط (إذا انشقت...) ليؤكدها في نفوس المتلقين، فلا مجال للتهرب أو التغافل أمام أسلوب يتسم بالاختصار والتحديد، ثم جاءت هذه الصورة البيانية المركبة من التشبيهين اللتين يبلغ بهما المعنى إلى قلب المتلقي ويتمكن منه فلا يملك إلا الهرب نفورا أو الإقبال محبة واستعدادا

ثم جيء بأسلوب النفي (لا يسأل عن ذنبه...) ليدل على ما يكون من صمت مفزع في هذا الموقف، حيث لا يسأل إنس ولا جان عن ذنوبهم، وهي لحظة انتظار أصعب على النفس وأرهب للقلب انتظارا لما سيكون، وفي ذكر الإنس والجان تحديد وتبيين بأن هذا شأنهما جميعا، زيادة في التهويل من شأن هذا الموقف الذي تتبدل فيه السماء.

وبني الأسلوب الخبري (يعرف المجرمون...) ببناء المضارع لغير فاعله، ليكشف عن عمومية الدلالة، فكل من ينظر إلى واحد منهم فإنه يعرفه بما يظهر عليه من سمة دالة، ووسمة كاشفة، وهذه شكل من أشكال العذاب ولون من عموم الفضيحة.

كما بني في سياقه المضارع (يؤخذ) دلالة على التهوين من شأنهم، وعلى التهويل مما وراءه ممن يصدر إليهم الأمر بأخذهم إلى مصيرهم المحتوم، واختيرت مادة الأخذ، لما فيها من قوة وقهر، ويبدو هوانهم في هيئة الأخذ حيث تجمع الأقدام إلى الجباه، ثم يقذف المجرمون على هذه الهيئة إلى النار والنواصي موضع الكبر والتعالي عن دعوة الحق والنفور منه، والأقدام تلك الجارحة التي حملتهم إلى الجهة البعيدة عنه، فيجمعان في مشهد يجمع بين العذاب والهوان.

البناء الكلي للصورة يشتمل على أحداث مهولة، ومواقف عظيمة، وتغيير كوني مذهل، وحركة وطواف واضطراب، وألوان ودهان، ويحتوي على حال

نفوس ذليلة مهانة، وبدت على المشهد الألوان المتعاكسة: احمرار السماء مع سواد الوجوه وزرقة العيون، والجمع بين النواصي والأقدام في مشهد رهيب مخيف كئيب، يعلوه حضور جهنم الملتهبة المخيفة الكالحة التي لا قرار لها، فيشار إليها وهي تتلهف وتنتظر تحقيق الوعيد بإذعان المجرمين لها واصطلائهم بحميمها ولهيبها بلا هرب ولا نجدة، فقد قضي الأمر.

وأما في صورتي الجنان الأربعة فمكونات البناء مختلفة، لترسم مشهدين لمن تفضل الله عليهم ووسعهم برحمته وشملهم بإحسانه، فالكلمات ذات دلالات تنعيمية، وظلالة مديدة، وإيحاءات ذات أريحية، فإذا كان النظم في صورة انشقاق السماء وبيان حال غير المجرمين قد جعل من وصفهم بالمجرمين مسيطرا على المشهد وتكراره مرتين ومن جملة الإجرام تكذيبهم بجهنم، فإن بناء تشكيل صورتي الجنان الأربعة يقوم على تحديد هؤلاء المنعمين بهذه الجنان بأنهم (من خاف مقام ربه) والتضاد بينهما جلي، فما أجرم المجرمون إلا لأنهم ما خافوا مقام ربهم، ونسوا الله سبحانه وتعالى ولم يقدروه حق قدره، فاستحقوا ما ذكر من عذاباتهم في جهنم. وإن العبد الذي يخاف مقام ربه، فهو الذي يعظم ربه ومقامه بين يديه، ونهى النفس عن الهوى، وقام بما أمر به، فاستحق التشريف والتكريم بالإضافة إلى الرب الرحيم الحافظ المربي المنعم (ربه) واستحق-بفضل الله تعالى-جنتان.

والمجرمون يعذبون في (جهنم) وحدها ولم تقرن بغيرها، وكفى بها عذابا نفسيا وبدنيا، وهذا من تجلي آثار اسمه العدل يوم القيامة، فلم يعذبهم فوق ما يستحقون وهو عليه قادر، ولعل ذلك من النعم التي اتسقت مع مجيء قوله: (فبأي آلاء ربكما تكذبون) وأما من خاف مقام ربه فله جنتان ومن دونهما جنتان.

ومما هو جدير بلفت الانتباه تقديم (هذه جهنم) قبل ذكر تكذيب المجرمين وسره البلاغي التقليل من شأنهم، والتعجيل بذكر ما يسوؤهم، وفي المقابل قدم المسند (لمن خاف مقام ربه) على المسند إليه (جنتان) تكريما وتنويها بشأنهم،

فهم يستحقون التقديم والحفاوة. وتقابل حال الفريقين، فأهل جهنم في حيرة وبحث عن هرب أو تخفيف لآلامهم، وعبر عن ذلك بقوله: (يطوفون) لقدرته الدلالية على نقل مشهد دورانهم حول جهنم وحميمها، بينما أصحاب الجنان في نعيم وسكينة، وعبر عن ذلك بهذا الحال (متكين) في كلتا الجنتين، وهي حال المسرور الهانئ الممتلئ سعادة وأريحية.

وأما الكلمات الواصفة للجنان ونعيمها فقد جاءت هادئة تبث روح البهجة والسرور اتساقا مع حال المنعمين بعظيم النعم، فترى: جنتان/ جنتان/ أفنان/ مدهامتان/ عينان تجريان/ عينان نضاختان/ فاكهة/ نخل ورمان/ متكئين/ متكئين/ فرش/ بطائنا من استبرق/ رفرف خضر/ عبقري حسان/ جنى الجنتين دان/ قاصرات الطرف/ مقصورات في الخيام/ حور/ خيرات/ الياقوت/ المرجان/ الإحسان.

وهي كلمات بلغت الكمال في تصوير أنواع النعيم وأصنافه، وقد نسجت منها صورتان جسدتا النعيم الحسي والمعنى، بدءا من دخول الجنان حيث ترى الخضرة ثم الماء ثم الفواكه ثم الإتكاء على الفرش والرفرف الخضر، ثم المؤنسات القاصرات أو المقصورات على أزواجهن، واللاتي فاق جمالهن وطاب، كما تشكل بناء النظم في الجنان الأربعة من التراكيب الهادئة المتسقة مع جو النعيم والأريحية، والكاشفة عن كبريات النعيم ولطائفه، وسنزيده بيانا فيما هو آت.

واقتضى السياق مجيء (فبأي آلاء ربكما تكذبان) في صورة بيان حال المجرمين بعد ما اشتمل عليه من إرسال شواظ من نار، وانشقاق السماء، والأخذ بالنواصي والإقدام، وطواف المجرمين بين جهنم والحميم الآن، إذ الامتنان وأثر الربوبية يبدوان فيما وراء ذلك من التحذير والإبانة عما يقع على الكفر بالمنعم وكفران النعم، والتحذير والزجر عما يورد المهالك والمصائب من أعظم النعم وأجلها.

ومن عجائب هذا التكرار توزيع تكرار الآية في سياق السورة، ففي آيات النعم جاءت ثماني مرات، وفي سياق آيات التهديد بالعذاب بالشواظ والنحاس والنار ذكرت سبع مرات، ووزعت في بيان آيات جنتي الخائف من مقام ربه ثماني مرات، وفي بيان (ومن دونهما جنتان) جاءت ثماني مرات، وقد علل لذلك الصاوي في حاشيته بقوله: (ثمانية منها عقب آيات تعداد النعم، ثم سبعة عقب ذكر النار وشدائدها على عدة أبوابها لأن التخلص منها نعمة، ثم ثمانية عقب الجنتين الأولين كعدة أبوابها، ثم ثمانية عقب وصف الجنتين اللتين هما دون الجنتين الأولين)[1] ولعل سر توافق عددها بعد النعم مع عددها بعد الجنتين الدلالة على أن التصديق بواهب النعم والمتفضل بها وتوحيده وشكره عليها طريق الفوز بالجنان، وأما اتفاق عددها بعد الجنتين الأولين مع عددها بعد الجنتين الأخريين، فلبيان أن الجنة أيا كانت عظيمة النعيم، من تحصل على مكان فيها فقد فاز فوزا عظيما، وأنهما جديرتان بأن تذكر الآية في سياقهما بقدر ذكرها في السابقتين عليهما، وهذا التوزيع العددي من ألوان بلوغ السمات البيان الكريم الدرجة الأسمى في الدقة الهادية إلى الطريق المستقيم.

المحور الثاني: صورة ولمن خاف مقام ربه جنتان، وصورة ومن دونهما جنتان.

وحتى نوفي الموازنة بين الصورتين حقها نتلبث أمام اختلاف أهل التفسير حول بيان أي الجنتين أعلى من الأخريين، فالأكثرون يرون أن الأوليين أعلى رتبة، وأفضل منزلة، ويمكننا أن نجمل كل ما قيل في ذلك بالإجابة على تلك الأسئلة:

- لمن تلك الجنان؟
- ما سر تقديم الجنتين الأوليين؟

(١) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين/ ٤/ ١٤٦/ مصطفى البابي الحلبي/ القاهرة ١٣٦٠هـ-١٩٤١م.

- ما دلالة اختصاص كل جنتين بأوصاف تمايزت بها عن الأخريين، وسر ترتيب تلك الصفات؟
- ما دلالة التعقيب بعد كل جنتين؟

والإجابة عن السؤال الأول تعين بقوة على الوقوف على معرفة الجنتين الأعلى منزلة ورتبة، فقد بدأت الصورة الأولى بقوله تعالى: (ولمن خاف مقام ربه جنتان) فالجنتان لمن فاز بهذا المقام الرفيع، وفي مقابل ذلك استهلت الصورة الثانية بقوله: (ومن دونهما جنتان) في سياق ما أعد لمن خاف مقام ربه، والمسند (من دونهما) يبين عن رتبتهما بأنهما دون السابقتين عليهما، يقول أبوحيان: (ومن دون تينك الجنّتين في المنزلة والقدر جنتان ...)[١]

ولا يناقض ذلك قول من قال بأن السابقتين للسابقين أو للمقربين، ومن دونهما لأصحاب اليمين، الذين ورد ذكرهم في سورة الواقعة[٢]، فالعلي لدي أن التقسيم الوارد في سورة الواقعة تفصيل للمجمل هنا، ف (من خاف مقام ربه) إجمال، فصل في الواقعة بأصحاب اليمين، والسابقين والمقربين، وبذلك تتواصل المعاني (فمن حسن المناسبة أن تتحدث سورة الرحمن عن وصف الجنتين اللتين أعدتا للمقربين، ثم تعطف بالحديث عن وصف الجنتين اللتين أعدتا لأصحاب اليمين، وبذلك تتلاءم السورتان وتتلاقيان في كمال المناسبة وحسن التناسق)[٣] وبذلك ندرك أن الجنتين السابقتين أعلى رتبة ومنزلة.

وتقديم الجنتين السابقتين مبين عن فضلهما، وكاشف عن عظيم نعيمهما، يقول السعدي: (ومجرد تقديم الأوليين على الأخريين يدل على فضلهما)[٤]وقد

---

(١) البحر المحيط/ ٨/ ١٩٦

(٢) ينظر/ جامع البيان عن تأويل آي القرآن/ ٢٣/ ٦٩، والبحر المحيط/ ٨/ ١٩٦، وروح المعاني/ الألوسي/ ١٤/ ١٢٠

(٣) أسلوب المقابلة في سورة الرحمن وأثره في المعنى/ ٨١

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان/ السعدي/ ٧٧٢/ مؤسسة الرسالة/ بيروت، ط١ ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م

علق بعض الباحثين على السعدي بقوله: (غير أن هذا الرأي يمكن مناقشته؛ ذلك أن التقديم لا يستقل وحده بإظهار التفاضل؛ لأن التقديم هنا يشعر بالاهتمام، والتقديم وإن أشعر بالاهتمام فليس شرطاً أن يدل على أفضلية المقدم في الذّكر على غيره، ألا ترى إلى ما جاء في سورة الواقعة، حيث ذكر في صدرها بطريق التعلّي أو الترقي... فالسابقون ورد ذكرهم بعد أصحاب الميمنة بطريق الترقي من الأدنى إلى الأعلى)[١]واستشهاده في غير محله، فقد بدئت صورة الجنتين السابقتين بـ (لمن خاف مقام ربه) وفي صورة الأخيرتين بـ (ومن دونهما ...) مما يظهر أن التقديم هادف إلى تفضيل السابقتين، وتبيين منزلتهما.

فإذا ما توجهنا إلى المضمون والمحتوى، فسنجد علماء التفسير انقسموا إلى فريقين، فابن عباس–رضي الله عنهما–يرى أن المتأخرتين أعلى من السابقتين، فيقول: (ومن دونهما في القرب للمنعمين، والمؤخرتا الذّكر أفضل من الأوليين، يدل على ذلك: أنه وصف عيني هاتين بالنّضخ، وتينك بالجري فقط، وهاتين بالدهمة من شدة النِّعمة، وتينك بالأفنان، وكل جنّة ذات أفنان)[٢] وقد قال بمثله الحكيم الترمذي: (أن الدونية تعني: القرب، حيث قال: دون هاتين الجنتين إلى العرش، أي أقرب وأدنى إلى العرش، وقوله: عينان نضاختان: أي بألوان الفاكهة والنعم، والجواري المزينات، والدواب المسرجات، والثياب الملونات، وهذا يدل على أن النّضخ أكثر من الجري)[٣]وبالتدقيق نرى أن مناط التفضيل عندهما ما يلي:

- الدونية تعني: القرب من العرش.

(١) أسلوب المقابلة في سورة الرحمن وأثره في المعنى/ ٨١

(٢) البحر المحيط/ ٨/ ١٩٦، ١٩٧

(٣) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الجلية/ سليمان بن عمر الجمل/٤/ ٢٦٨/ دار الفكر للطباعة والنشر.

وقد سبق البيان بأن السياق دال على أن الدونية مقصود بها الأدنى رتبة والأقل منزلة، فالتقابل بين المسند في الصورتين: (ولمن خاف مقام ربه جنتان) و(من دونهما جنتان) يقرر علو السابقتين رتبة ومنزلة.

- نضخ العينين أقوى من جريانهما.

وظاهر أن في جريان العينين ما لا يوجد في النضخ، فالماء الجاري أنقى وأصفى من الشوائب والعكر، ولا يمنع جريان العينين أن تكونا نضاختين، وليس العكس، فالنضاختان لا تجريان، كما أن الجريان أكثر جمالا ومنظرا في عيني أصحاب الجنتين.

- الدهمة من شدة النعمة.

وبالتدبر نجد أن (ذواتا أفنان) تعنى أن شجرهما كثيف لكن الضوء يتسلل إليهما من بين الأشجار، بخلاف (مدهامتان) فكثافة أشجارهما أو زرعهما تمنع تخلل الضوء ووصوله إليهما، مما يجعل السابقتين أكثر جمالا وإبداعا.

وكثيرون يرون خلاف ما قالاه، فالزمخشري يعدد في إيجاز أوجه أفضلية الجنتين السابقتين قائلا: (فإن قلت: كيف تقاصرت صفات هاتين الجنتين عن الأوليين حتى قيل: ومن دونهما؟ قلت: مدهامتان دون ذواتا أفنانٍ، ونضاختان دون تجريان، وفاكهةٌ دون كلٍّ فاكهة، وكذلك صفة الحور والمتكأ)[1] فبالمقابلة بين مكونات الصورتين الكليتين قرر أن الجنتين السابقتين أعلى رتبة من غيرهما، ومن عجب أن أبا حيان قد زعم أن الزمخشري قد قدم الأخريين على الأوليين.[2]

وقد قابل الزمخشري بين أشياء عديدة، بعضها يحتاج إلى مزيد بيان:

- دونهما: تدل على أنهما أقل منزلة
- (مدهامتان) أقل من (ذواتا أفنان)

---

(١) الكشاف/ الزمخشري/ ٤/ ٤٥٢.

(٢) أسلوب المقابلة في سورة الرحمن وأثره في المعنى/ ٨٢، وينظر/ البحر المحيط/ ٨ / ١٩٧

ومن تفسير البيضاوي يمكننا توضيح الموازنة بين (ذواتا أفنان) و (مدهامتان) فالأولى ممتلئة بالأشجار والأغصان المورقة والفواكه، بينما الثانية شديدة الخضرة لكون الغالب عليهما النبات والرياحين المنبسطة على الأرض، مما يفاوت بنهما في المنزلة.(١)

- نضاختان دون تجريان. وقد أبنا عن ذلك فيما سبق.
- فاكهةٌ دون كلٌ فاكهة.

وقد قيل فيه نظر (لأن النكرة في (فيهما فاكهةٌ) تفيد العموم أيضاً، وهي من خلال السياق تفيد التكثير والتنويع كذلك، فتفضيل الجنتين الأوليين على الأخريين لا يكون من خلال هذه الآية، فما في هذه ليس ما في تلك، وما في تلك ليس ما في هذه، فكلٌ له خصوصيته في الثمر هنا)(٢)ولا يخفى أن قوله هو فيه نظر، لما في مجيء (كل وزوجان) زيادة تأكيد على الكثرة والتنوع.

- صفة الحور.

فحور الجنتين الأوليين قاصرات الطرف، مما يدل على الذاتية والفاعلية، فهن مخيرات، لكنهن اخترن العفة وحبس أنفسهن على أزواجهن. وأما حور الأخريين فهن (مقصورات) محبوسات في الخيام، والفرق بينهما كبير، كالفرق بين الفاعل بإرادته، والمفعول به. كما وصفت حور الأوليين بقوله: (كأنهن الياقوت والمرجان) فوصفهن بالصورة البيانية المؤكدة بالصفاء مع البياض الذي تعلوه حمرة.

- صفة المتكأ.

ففي متكأ أصحاب الجنتين الأوليين وصف الباطن، ليفسح المجال لتخيل جمال الظاهر، فإذا كان الباطن (من استبرق) فكيف يكون الظاهر! بينما في الأخريين وصف الظاهر (رفرف خضر...) ولا نعرف عن الباطن شيئا، وزيد

(١) أنوار التنزيل وبهامشه حاشية الكازروني/ البيضاوي/ ٤/ ١١١/ مؤسسة شعبان بيروت.

(٢) أسلوب المقابلة في سورة الرحمن وأثره في المعنى/ ٨٢

في أريحية أصحاب الجنتين الأوليين (وجنى الجنتين دان) فيأتيهم الثمر ليتناولوه وهم متكئون، وليس ذلك في الأخريين.

وقد رتبت الصفات ترتيبا عجيبا، ففي الأوليين، يدخلك البناء الكلي للصورة إلى جنتين يتخلل ظلهما ضوء رقيق مبهج، ثم ترى عينين يجري ماؤهما رقراقا صافيا، ثم ترى أثر هاتين العينين من الفاكهة الكثيرة المتنوعة، فتقطف منها ما تشاء، فإن أحببت السكون والراحة فأمامك المتكأ البالغ الحسن باطنا وظاهرا، ثم ترى الثمار تدنو منك دون عناء ولا مشقة، ثم تفاجئك بشريك فراشك، حور قاصرت الطرف عليك دون عيرك. واختلف الترتيب في الأخريين بأن جعل المتكأ آخرا، مما جعل الفراش خاليا من الشريك بخلاف الأوليين، وهذا جانب من التفاوت بينهما.

كما عقب على الأوليين بقوله: (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) مما حصر أصحاب الجنتين بين ذكر مقامهم وإحسانهم وإحسان الله إليهم، وبذلك عطف الختام على البدء، فكما أبان عن مقامهم في (ولمن خاف مقام ربه) ختم الصورة بالثناء على ما قدموه في حياتهم بقوله: (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) فوردت صورة المعنى مرتين، فهم أحسنوا والله تعالى أحسن لهم رضا وأجرا وعطاء. ولم يعقب على الجنتين الأخريين، مما يزيد التفاوت بينهما وضوحا، وما قوله: (تبارك اسم ربك...) إلا أبلغ ختام للسورة كلها.

الموازنة كشفت لنا عن جانب من أسرار صور المقابلة المعنوية، والتفاوت القائم بينها، وأهمية التلبث أمام اصطفاء الكلمات واختيار التراكيب والصور البيانية والفنون البديعية ونظمها في سياقها الأرحب، ودور كل في تشكيل البناء الكلي للصور المتقابلة، ومنهجيته المبينة عن دقائق المعاني ولطائفها، ووسائل تأثيرها في المتلقين.

الخاتمة

رحلة تعبدية بحثية في دوحة سورة الرحمن ذات الثمار الناضجة والظلال الوارفة، وقد أثمرت عن هذه الدراسة التي من خلالها وقفنا على السمات البلاغية العامة للسورة، وعلى صور المقابلة المعنوية الثلاثة، ثم ما اختصت به كل سورة من بناء مكون من اصطفاء الكلمات واختيار التراكيب والصور البيانية والبديعيات التي تطلبها المعنى وارتضاها المقام، وقد وقفنا على بعض النتائج العلمية التي يمكننا إيجازها فيما يلي:

- تحتوي السورة على:

✓ مقدمة وهي آياتها الأربعة الأولى

✓ البيان عن تعدد النعم وتفصيلها الآيات (٥-٣٠)

✓ البيان عن التهديد والعذاب الآيات (٣١-٤٥)

✓ البيان عن مشهد جنتي من خاف مقام ربه وأوصافهما الآيات (٤٦-٦١)

✓ البيان عن مشهد ومن دونهما جنتان وأوصافهما (٦٢-٧٨)

- من السمات البلاغية العامة في السورة

✓ بلاغة الاستهلال وحسن الانتهاء، فاستهل بيانها الكريم باسمه تعالى (الرحمن) وختمت ب (تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام) فعاد ختامها إلى بدئها، واتسق معه.

✓ خصت سورة الرحمن بالتثنية والثنائية أيضا، مبدوءة بقوله تعالى: (الشمس والقمر بحسبان) والتثنية بقوله: (والنجم والشجر يسجدان) وختمت بقوله: (فبأي آلاء ربكما تكذبان) وهي ظاهرة في سياق السورة مما يجعلها متفردة بين سور الذكر الحكيم.

✓ سيطرة أسلوب الاستفهام (فبأي آلاء ربكما تكذبان) وغرضه التقريع والتوبيخ على ما وقعوا فيه من تقصير وتفريط وجهل ونسيان، وسر تكرار الأية هو تقرير نعمه تعالى، والتعريض بتقريعهم وزيادة في توبيخهم على

شركهم وجحودهم. ولم يكن لمجرد التوكيد، وإنما جاء في كل موضع مرتبط بنعمة قبله.

- ✓ جاءت الصورة البيانية في سورة الرحمن في مواقع محدودة تطلبها المقام، ودعا إليها المعنى، وهي صور قليلة إذا ما قورنت بعدد آيات السورة، مما يقطع بأن البيان الكريم بلغ الدقة المعجزة في استعمال صوره التي لا تبدو فيه إلا وفق مقتضى المقام واستدعاء المعنى المروم لها.
- ✓ احتوت سورة الرحمن بالعديد من مواقع المقابلة، كمجيئها بين (الشمس والقمر/ النجم والشجر) وبين (خلق الإنسان من صلصال كالفخار/ خلق الجان من مارج من نار).
- ✓ التنغيم من أهم ما يميز هذه السورة الكريمة، ولم تكن فاصلتها المتفردة هي الرافد الأوحد، وإنما تعددت تلك الروافد بما بين الحروف من تجانس، وما للكلمات من يقاع صوتي مبهر، فالفاصلة غلب عليها صوت (النون) حيث جاء في سبعين موضعا، ثم صوت (الميم) في ستة مواضع، بينما جاء صوت (الراء) في موضعين، وقد تطلبها المعنى واقتضاها المقام.

- صور المقابلة المعنوية في سورة الرحمن:

- ✓ في صورة انشقاق السماء وبيان حال المجرنين نجد السياق يرسم صورة كلية، تحتوي على أحداث ومواقف وحركة وألوان وحال نفوس ذليلة مهانة، ويسيطر على الصورة حضور جهنم الملتهبة المخيفة الكالحة التي لا قرار لها.

فالصورة متكاملة متناسقة متعددة العناصر والرسوم والصور الداخلية، تنقل إلى المتلقي المشهد الذي عمدت إليه بظلاله وإيحاءاته الواصلة بين الحياة الآنية والآخرة المنتظرة، ليحذر أن يجلب على نفسه هذا الخزي وذاك العذاب، فتتجلى في وجدانه إشراقة يقين بفيض اسم ربه (الرحمن) المستهل به.

- ✓ وفي صورة (ولمن خاف مقام ربه) يحمل السياق بكل مكوناته تكريما وتشريفا لأصحاب هذا المقام، وتحبيرا لصور النعيم بدءا من لام الملكية

(لمن) والاسم الموصول الذي يدعونا إلى التركيز على صلته (خاف مقام ربه) ثم (جنتان) وما تتميزان به من عيني الماء الجاريتين وكثرة الفاكهة وتنوعها وقرب تناولها، ثم حال أهلهما وأريحيتهما على فرش فيها حور عفيفات لا تتطلع إلى غيرهم، لم يمسهن إنس ولا جان، بلغن جمال الياقوت والمرجان المعبر عنه بصورة تشبيهية بأداتها القوية المؤثرة (كأن)

- ✓ وأما الصورة الثالثة (ومن دونهما جنتان) فتتناول البيان عن الجنتين اللتين دون الجنتين السابقتين، مبدوءة بالمنظر العام لهما حيث الخضة الشديدة المائلة للسواد، ثم الماء النضاخ، ثم الفاكهة الكثيرة والنخل والرمان، ثم الحور ذات الخيرية والحسن والعفاف المحبوسة على الأنس مع أزوجهن الأبكار الشريفات، ثم أريحية أصحاب الجنتين على الأبسط الخضر العجيبة الخلق الحسان، فهي صورة متنوعة كثيفة رقيقة نضرة صافية الكلمات دقيقة العبارات قصيرتها، مما يجعل المتلقي يسابق هذا النعيم بإنصات أذن واعية.

- ومن الموازنات العامة بين صور المقابلة الثلاثة تبين لنا أهمية الموازنة كمنهج مبين البناء الكلي لصورة المقابلة، وما خصت به كل صورة من الكلمات المختارة، والتراكيب المصطفاة، والصور الكاشفة، فلكل صورة مقصد تتطلب ما يظهره ويبين عنه، ومن ذلك:

- ✓ تقوم صورة المقابلة المعنوية بدور بار في الترغيب، والترهيب وقدم الترهيب على الترغيب في الصور الثلاثة، لأن النعم الواردة في السورة تقتضي القيام بواجب الشكر والانقياد لأمر المنعم سبحانه، فاتسق تقديم صورة من اتصف بكفران النعم.
- ✓ ومما لفت النظر كثرة الكلمات الغاضبة المؤثرة في بناء مشهد انشقاق السماء وتصوير حال المجرمين، فالكلمات اصطفيت لتبين عن الصورة الكلية بما يحذر المتلقي من الوقوع في المصير ذاته

وأما في صورتي الجنان الأربعة فمكونات البناء مختلفة، لترسم مشهدين لمن تفضل الله عليهم ووسعهم برحمته وشملهم بإحسانه، فالكلمات ذات دلالات تنعيمية، وظلالة مديدة، وإيحاءات ذات أريحية، وبناء تشكيل الصورتين يقوم على تحديد هؤلاء المنعمين بهذه الجنان بأنهم (من خاف مقام ربه) والتضاد بينهما جلي، فما أجرم المجرمون إلا لأنهم ما خافوا مقام ربهم، ولم يقدروه حق قدره، وبالموازنة ندرك استحقاق كل فريق ما أعد له.

- ✓ يعذب المجرمون في (جهنم) وحدها ولم تقرن بغيرها، وكفى بها عذابا نفسيا وبدنيا، وأما من خاف مقام ربه فله جنتان ومن دونهما جنتان.
- ✓ تقديم (هذه جهنم) قبل ذكر تكذيب المجرمين وسره البلاغي التقليل من شأنهم، والتعجيل بذكر ما يسوؤهم، وفي المقابل قدم المسند (لمن خاف مقام ربه) على المسند إليه (جنتان) تكريما وتنويها بشأنهم.
- ✓ انقسم المفسرون إلى قسمين حول تفضيل الجنتين الأوليين على الأخريين، أو العكس، وبالموازنة بين أصحاب كل منهما، وبين تقديم الجنتين الأوليين، وبين اختصاص كل جنتين بأوصاف تمايزت بها عن الأخريين، وسر ترتيب تلك الصفات، وبين دلالة التعقيب بعد كل جنتين–يتبين أن الجنتين الأوليين أعلى رتبة وأعظم منزلة.

هذه بعض ما توصلت إليه الدراسة من نتائج تدعونا إلى أهمية دراسة صور المقابلة المعنوية في البيان الكريم خاصة، والتلبث امام خصوصيات كل صورة، ووسائلها البيانية في تحديد المعاني، وسبل تأثيرها في نفوس المتلقين.

وإن كان ثمة توفيق فمن الله وحده، وما كان غير ذلك فمن نفسي والشيطان، وإني لأستغفر الله منه وأتوب إليه، وإن ربي لغفور رحيم.

المصادر والمراجع

١. الإتقان في علوم القرآن/ جلال الدين السيوطي/ ت: محمد أبو الفضل إبراهيم/ الهيئة المصرية العامة للكتاب/ ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م
٢. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم/أبو السعود/ دار إحياء التراث العربي بيروت
٣. أساس البلاغة/ الزمخشري/ مكتبة لبنان/ ط١/ ١٩٩٦م
٤. أسلوب التوكيد في القرآن الكريم/ مكتبة لبنان–بيروت/ ط١/ ١٩٩٥م
٥. أسلوب المقابلة في سورة الرحمن وأثره في المعنى/ د/ علي زكريا محمود الخضر/ المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية/ ع٧(أ/ب)١٤٣٢هـ–٢٠١١م
٦. أسلوب المقابلة في القرآن الكريم–دراسة فنية بلاغية مقارنة/ د/ كمال عبد العزيز إبراهيم/ الدار الثقافية ٢٠١٠م م
٧. إعجاز القرآن/ الباقلاني/ ت/ صلاح بن محمد بن عويضة/ دار الكتب العلمية بيروت/ ط١/ ١٩٩٦م
٨. إعراب القرآن/ النحاس/ عالم الكتب/ ط٣/ ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٨ م
٩. إعراب القرآن وبيانه/ محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش/ دار ابن كثير –بيروت/ ط٤/ ١٤١٥هـ
١٠. أنوار التنزيل وبهامشه حاشية الكازروني/ البيضاوي/ مؤسسة شعبان بيروت.
١١. البحر المحيط/ أبوحيان/ ت/ عادل أحمد عبد الموجود وآخرون/ ط ١/ دار الكتب العلمية لبنان بيروت ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م
١٢. بحوث منهجية في علوم القرآن الكريم/ موسى إبراهيم الإبراهيم/ دار عمار ط٢/ ١٤١٦هـ–١٩٦٦م
١٣. البرهان في علوم القرآن/ الزركشي/ ت/ محمد أبو الفضل إبراهيم/ عيسى الحلبي/ ط١/ ١٣٧٦هـ–١٩٥٧م

١٤. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز/ الفيروزآبادي/ ت/ محمد علي النجار/ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية/ القاهرة ١٤١٦هـ-١٩٩٦م
١٥. البناء اللغوي في الفواصل القرآنية/ د/ علي عبد الله حسين العنكبي/ ٢٦٦/ دار صفاء-عمان/ ط١/ ١٤٣٢هـ-٢٠١١م
١٦. التحرير والتنوير/ الطاهر بن عاشور/ الدار التونسية للنشر ١٩٨٤م
١٧. التفسير البياني للقرآن الكريم/ عائشة بنت عبد الرحمن بنت الشاطئ/ ط٧/ دار المعارف-القاهرة
١٨. تفسير المراغي/ أحمد بن مصطفى المراغي/ مصطفى الحلبي/ ١٣٦٥هـ-١٩٤٦م
١٩. تفسير القرآن العظيم/ ابن كثير/ ت/ محمد حسين شمس الدين/ دار الكتب العلمية-بيروت/ ط١/ ١٤١٩هـ
٢٠. التلخيص في علوم البلاغة/ القزويني/ ضبط وشرح عبد الرحمن البرقوقي/ دار الفكر العربي
٢١. التناسب الإيقاعي الدلالي في سورة العلق/ د/ جليلة صالح العلاق/ كلية التربية للبنات-جامعة الكوفة
٢٢. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان/ السعدي/ ٧٧٢/ مؤسسة الرسالة/ بيروت، ط١ ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م
٢٣. الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه مع فوائد نحوية هامة/ محمود صافي/ دار الرشيد مؤسسة الإيمان.
٢٤. جامع البيان عن تأويل آي القرآن/ الطبري/ ت/ د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي/ ط١-١٤٢٢هـ-٢٠٠١م
٢٥. الجامع لأحكام القرآن/ القرطبي/ دار الفكر
٢٦. حاشية الصاوي على تفسير الجلالين/ مصطفى البابي الحلبي/ القاهرة ١٣٦٠هـ-١٩٤١م

٢٧. حاشية محي الدين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي/ ضبط وتصحيح/ محمد عبد القادر شاهين/ دار الكتب العلمية–بيروت لبنان/ ط١/ ١٤١٩هـ–١٩٩٩م
٢٨. خزانة الأدب وغاية الأرب/ ابن حجة الحموي/ ت عصام شعيتو/ ط ١/ دار ومكتبة الهلال – بيروت ١٩٨٧
٢٩. الخصائص/ أبو الفتح ابن جني/ ت/ محمد علي النجار/ دار الكتب المصرية/ القاهرة ١٩٥٢م
٣٠. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون/ السمين الحلبي/ ت/ د أحمد محمد الخراط/ دار القلم–دمشق
٣١. دلائل الإعجاز/ عبد القاهر الجرجاني/ ت/ محمود شاكر/ مطبعة المدني بالقاهرة، ودار المدني بجدة/ ط٢ ١٤١٣هـ
٣٢. دلالات التثنية والصور البلاغية والموسيقية في سورة الرحمن/ محمود شكيب أنصاري، وعاطي عبيات/ مجلة اللغة والأدب العربي.
٣٣. روح المعاني/ الألوسي/ ت/ علي عبد الباري عطية/ ط١/ دار الكتب العلمية – بيروت ١٤١٥هـ
٣٤. سورة الرحمن–دراسة بلاغية وأسلوبية/ إبراهيم عوض/نسخة من شبكة الألوكة
٣٥. الاشتراك اللفظي في القرآن الكريم–بين النظرية والتطبيق/ محمد نور الدين المنجد/ دار الفكر–دمشق/ ط١/ ١٤١٩م–١٩٩٩م
٣٦. شروح التلخيص/ دار الكتب العلمية
٣٧. الصناعتين/ أبو هلال العسكري/ ت البجاوي وأبي الفضل/ ط٢ دار الفكر العربي.
٣٨. علم المعاني/ عبد العزيز عتيق/ ط١/ دار النهضة العربية بيروت – ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م

٣٩. العمدة/ ابن رشيق/ ت محمد محي الدين عبد الحميد/ / دار الجيل ط٤ ١٩٧٢م
٤٠. فتح القدير/ الشوكاني/ دار ابن كثير، دار الكلم الطيب–بيروت دمشق/ ط١/ ١٤١٤هـ
٤١. الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الجلية/ سليمان بن عمر الجمل/ دار الفكر للطباعة والنشر
٤٢. في ظلال القرآن/ سيد قطب/ دار الشروق/ ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٣ م
٤٣. القرائن بين اللغويين والأصوليين/ د/ نادية رمضان النجار/ دار الكتب العلمية
٤٤. كتاب العين/ الخليل بن أحمد الفراهيدي/ ت مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي/ مكتبة الهلال
٤٥. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل/ الزمخشري/ دار الكتاب العربي–بيروت/ ط٣ ١٤٠٧م
٤٦. لسان العرب/ ابن منظور/ دار صادر
٤٧. مختار الصحاح/ ت/ مصطفى ديب البغا/ دار الهدى الجزائر/ ط٤/ ١٩٩٠م
٤٨. مشاهد القيامة في القرآن/ سيد قطب/ دار الشروق/ط٧/ ١٤٠٣هـ–١٩٨٣م
٤٩. المعجم العربي بين يديك/ الفوزان وآخرون/ العربية للجميع/ الرياض/ ١٤٢٥هـ
٥٠. مفتاح العلوم/ ١٧٩/ دار الكتب العلمية بيروت–لبنان
٥١. المفردات في غريب القرآن/ الراغب الأصفهاني/ ت/ محمد سيد كيلاني/ دار المعرفة بيروت
٥٢. مقاييس اللغة/ أحمد بن فارس/ دار الفكر/ ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

٥٣. موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة/ يوسف الحاج أحمد/ مكتبة ابن حجر/ ط٢/ ١٤٢٢-٢٠٠٣م
٥٤. الموسوعة في صحيح السيرة النبوية/ أبو إبراهيم محمد إلياس عبد الرحمن الفالوذة/ مطابع الصفا-مكة/ ط١-١٤٢٣هـ
٥٥. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور/ البقاعي/ ت/ عبد الرازق المهدي/ دار الكتب العلمية ط١/ ١٤١٥هـ-١٩٩٥م
٥٦. نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز/ فخر الدين الرازي/ ت/ د/ سليمان حمودة/ دار المعرفة الجامعية ٢٠٠٣م